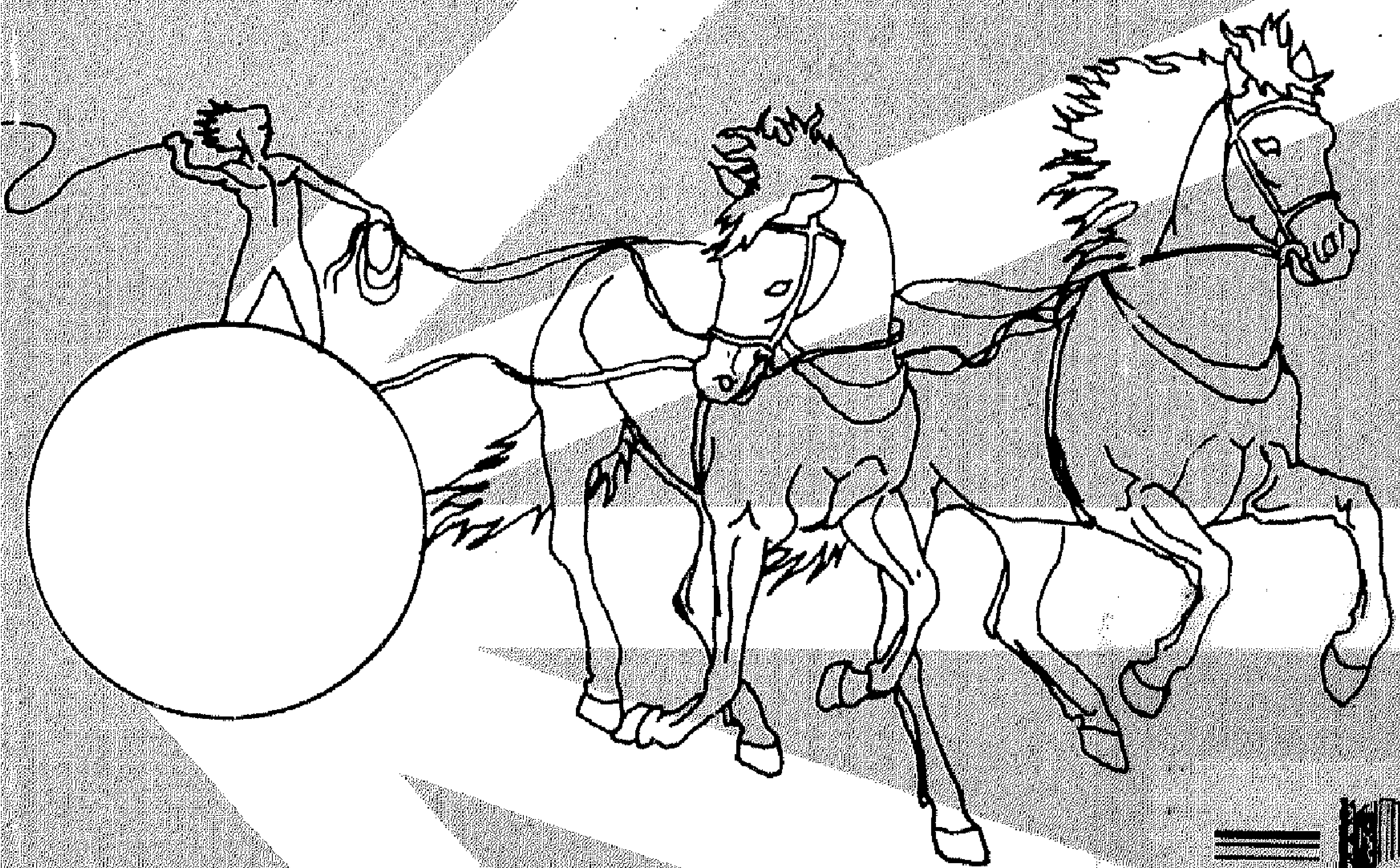
إله الشمس الحمصي

والديانات الشرقية في الامبراطورية الرومانية





تأليف: فرانتس التهايم

ترجمة: إيرينا داوود

مراجعة وتقديم: فراس السواح

إله الشمس الحمصي

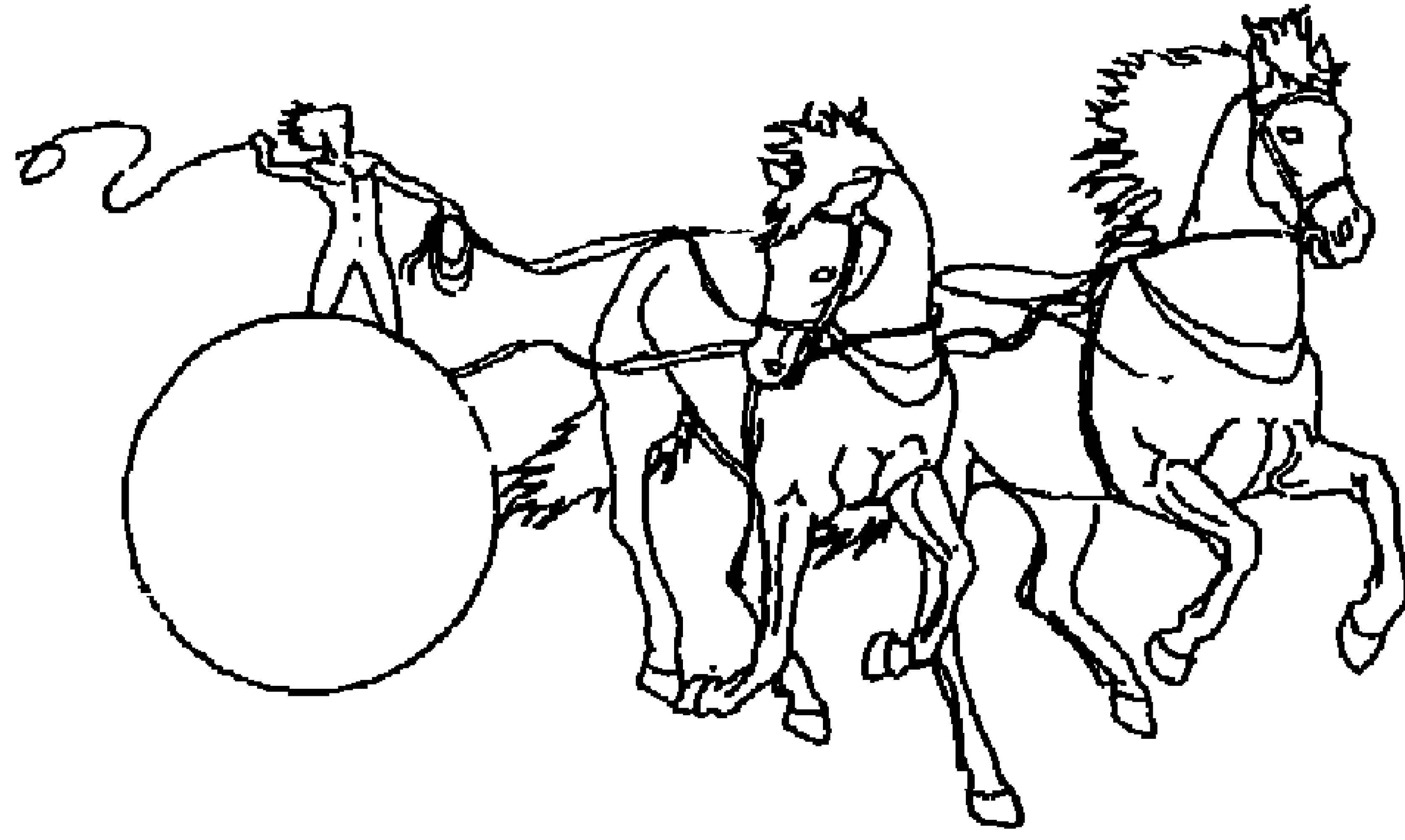
والديانات الشرقية في الامبراطورية الرومانية

* إله الشمس الحمصي
والمعتقدات الشرقية في الامبراطورية الرومانية
* تأليف **انتس التهايم**- ترجمة: إيرينا داوود
* الطبعة السورية الأولى ١٩٩٠
* الناشر: دار المنارة ـ الجمهورية العربية السورية
دمشق ص. ب ٩٤٨٠ ـ اللاذقية ص. ب ٨٢٢

* التنضيد الضوئي: الاهالي ـ دمشق
* تصميم الغلاف: نبيل السمان
* الاخراج والاشراف الفني: القسم الفني لدار المنارة
١٠٠٠/ ٤/ ١٩٩٠

إله الشمس الحمصي

والديانات الشرقية في الامبراطورية الرومانية



تأليف: فرانتس ألتهايم

ترجمة: إيرينا داوود

مراجعة وتقديم: فراس السواح

العنوان الأصلي للكتاب

FRANZ ALTHEIM

Der unbesiegte Gott

Heidentum und Christentum

مقدمة المراجع

لدى مقارنتهم بين الحضارة المصرية القديمة وحضارة الهلال الخصيب، يلقي كثير من المؤرخين باللائمة على شعوب بلاد الرافدين لتأخرها في إقامة الدولة المركزية الموحدة، وعلى شعوب بلاد الشام لعدم تكوينها لدولة مركزية قط. فبينما ترافقت حضارة المدينة في مصر مع تشكيل المملكة القديمة التي وحدت مصر العليا والسفلى منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، فإن الدولة المركزية في بلاد الرافدين لم تثبت أقدامها إلا مع صارغون الأكادي (٢٣٧١ ق. م) الذي وحد كامل الأراضي الرافدية، وتطلع بعد ذلك إلى المناطق الواقعة غربي الفرات. وعندما سقطت دولة الأكاديين على يد البرابرة الشرقيين، بعد أقل من مائة وخمسين عاماً على تكوينها، لم تقم الدولة المركزية ثانية إلا على يد الملك حمورابي البابلي الذي حكم أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد. أما في بلاد الشام، فلم تقم إلا محاولات محدودة لاقامة الدولة المركزية، فخلال النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد،

ظهرت مملكة إيبلا في الشمال السوري كأقوى دولة في مناطق غربي الفرات، ولكنها لم تتمكن في أي وقت من بسط سلطانها على كامل الأراضي السورية، ومثلها في ذلك مملكة حلب (يمحاض) التي ورثت سلطان إيبلا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد فوسعت رقعتها حتى حدود الفرات شرقاً وحدود مملكة قطنا (قرب حمص) جنوباً، دون أن تتمكن من تزويد المجتمع السوري بدولته المركزية الواحدة.

وفي الحقيقة، فإن نظام دولة المدينة هو ظاهرة مترافقة مع نشوء الحضارات في فتراتها الابداعية الأولى وزخم عطائها المبكر في المراحل التأسيسية الحاسمة، أما الدولة المركزية التي تجمع تحت لوائها دويلات المدن الشائخة، فتأتي في مرحلة لاحقة تتميز بنضوب الطاقة الابداعية في المجتمع، وظهور عوامل الانحلال المبكرة في حضارة ما، فالحضارة الرافدية قد وصلت ذروتها من خلال الثقافة السومرية التي ازدهرت في ظل نظام دويلات المدن التي ما عرفت الوحدة قط طيلة أكثر من ألف عام، كانت خلاله قادرة على حماية حدودها وصد غزوات البرابرة المتهيئين دوماً للانقضاض على مراكز الحضارة. ولم تكن محاولة «لوغال زاغيزي» التوحيدية التي قطف ثمارها مباشرة «صارغون الأكادي»، إلا بادرة انحلال في المجتمع الرافدي الذي عاش فترة انحدار طويلة أبعدت نهايتها امبراطوريات آكاد وبابل وآشور، التي لم تقم إلا بإنتاج تنويعات ثقافية على الأسس الراسخة للحضارة السومرية.

وتعطينا الحضارة اليونانية المثال الواضح الثاني عن حيوية مجتمع دولة المدينة وطاقته الابداعية في مقابل مجتمع الدولة المركزية الكبرى، فلقد أعطت الحضارة الاغريقية للعالم كل ما عندها من خلال نظام دولة المدينة، ولم يعرف الاغريق الوحدة السياسية ولم يعملوا قط على

الانضـواء تحت سلطـة مركـزية واحدة. وعندما قام الاسكندر المقدوني بتـوحيـد بلاد اليـونـان، كانت ثقـافـة الاغـريق قد قطعت أشـواطهـا الأخـيرة، ولم يحفظهـا من الانهيـار الحتمي سوى قوة الامـبراطـوريـة الرومانية التي لعبت في العالم الهيليني دور الامبراطوريات الرافدية، ولم تنتج سوى تنويعات على الأسس الراسخة للثقافة الاغريقية.

على أن المثـال السـوري متميز وفريد من نوعه. فلأكثر من ثلاثة آلاف عام عاشت دويلات بلاد الشام دون أن تفرض على نفسها دولة مركـزيـة ودون أن يفـرضهـا عليهـا فاتـح خارجي الا لفترات معترضة قصـيرة. فالمـد الرافدي في عصر أسرة صارغون الأول الذي وصل إلى البحـر المتـوسـط قد انحسر سريعاً دون أن نعرف بالوثائق المؤكدة مدى شمـوله لجميع الأراضي السورية، وحمورابي البابلي لم يتجاوز في توسعه نهر الفـرات بعـد تدمـيره مدينـة «مـاري». أمـا الامبراطوريتان الحثية والفرعونية فقد تقاسمتا مناطق لنفوذ في بلاد الشام دون أن تعملا على ضـم المنـاطق الـواقعـة تحت نفـوذهما بل اكتفتـا بالمعـاهدات التي تكفل مصـالحهـما وتحمي حدودهما، والنماذج التي تم اكتشـافهـا لمثـل هذه المعـاهـدات مع ممالك المدن السورية، تظهر كيف حافظت هذه الممالك على استقلالها تحت السلطة الاسمية للقوتين العظميين في الألف الثاني قبـل الميـلاد، وكيف حافظت على حيـويتهـا الخـلاقـة في ظل الـواقـع السيـاسي المفـروض. وقـد استمـر الأمـر على هذا المنـوال حتى مطلع الألف الأول قبـل الميـلاد عنـدمـا ظهـرت نذر الشر عند الأفق الشرقي بطلائع جيوش آشور تعبر نهر الفرات.

كانت الحمـلات الآشورية المبكرة ذات طابع استعراضي تهدف إلى بسـط النفـوذ وجمـع الجـزيـة، ثم تحولت تدريجياً إلى حملات شرسة

تدمر وتحرق وتسلب وتعقد مواثيق الوصاية التي كانت الدويلات السورية تنقضها حالما يدير الملك الآشوري ظهره، ثم انتهت أخيراً بضم ممالك بلاد الشام الواحدة تلو الأخرى تحت لواء التاج الأشوري.
لقد دمر «صارغون الأكادي» أو ابنه «نارام سن» مدينة «ايبلا» التي لم تقم لها قائمة بعد ذلك، ودمر «حمورابي البابلي»، مدينة «ماري» فسوى أبنيتها بالتراب، وهما جريمتان كبيرتان في تاريخ حضارة الشرق القديم، ولكنهما جريمتان لاتذكران أمام فظائع العسكرية الآشورية التي ابتكرت، بعد أن أعيتها الحيلة أمام مقاومة المدن السورية العنيدة، أسلوباً لم يسبقها إليه أحد ولم يقلدها فيه بعدها أحد، حيث عمدت إلى اجراء تغييرات ديمغرافية جذرية في البنية السكانية لبلاد الشام، وذلك بترحيل جميع سكان المدن المتمردة واحلال سكان جدد في أراضيهم من المناطق المقهورة الأخرى.

ولكن المدهش والغريب أن المجتمع السوري لم يفقد حيويته وطاقته المبدعة بعد كل تلك الضربات، وها هو في القرن الأول قبل الميلاد، قد أتم استيعاب فاتحيه.

وصارت الشعوب من البحر المتوسط إلى حدود الهند تتكلم اللغة الآرامية وتكتب بها. تراجع الفرس أمام حملات الاسكندر، ثم ذاب السلوقيون الذين ورثوا الاسكندر في سورية في خضم الثقافة الأصيلة القديمة، وانتجت سورية آخر ابداعاتها في العصور القديمة من خلال الثقافة الهلينستية التي مثلت التمازج الخلاق بين ثقافة بلاد الشام والثقافة الاغريقية.

إن العيب الكبير الذي يراه كثير من المؤرخين في استمرار دولة المدينة في سورية هو في الحقيقة عين فضيلتها ومؤشر حيويتها التي لم

تنضب قط. فالانسان السوري بطبيعته شمولي النزعة، عالمي النظرة، يعشق الحرية ويقدسها ويرى فيها القيمة الانسانية المثلى، يتحرك دوماً في مجاله الضيق انطلاقاً من منظور شامل يرى إلى الكون بأسره. أعطى السوري للعالم الحروف الهجائية وهو اكتشاف لا يعادله آخر في تاريخ الحضارة، ووصل بالفكر الديني إلى فكرة التوحيد التي تجمع شعوب الأرض كافة تحت لواء واحد، وارتاد أصقاع البحار فاجتاز المتوسط إلى المحيط الاطلسي وما وراءه لا مدفوعاً بالفتح أو التوسع، بل بذلك النداء الذي يدفع الانسان إلى البحث والكشف.

أما إلى متى استمرت حيوية المدينة السورية دافقة ومؤثرة في محيطها وفي المحيط الأوسع، فهذا مايجيب عليه هذا الكتاب من خلال متابعته للحوار الكبير بين الشرق والغرب، الذي شكل حكم الأسرة السورية لروما ذروته ، وذلك بين أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي. وقد كان لمدينة حمص بالذات أن تلعب الدور الأهم في ذلك المخاض الديني الكبير إبان القرن الثالث الميلادي، والذي انتهى باعتناق الامبراطور «قسطنطين» الديانة المسيحية وإعلانها ديانة رسمية للامبراطورية.

لقد بدا من فتوحات الاسكندر المقدوني أن حكمة الشرق تتمرغ بالتراب أمام العقل الهيليني. وفي الحقيقة، فإنه طالما تمكنت السلطة الأجنبية من السيطرة على المهزومين، نظر هؤلاء مندهشين إلى الجديد المستعصي على الفهم، وتحملوا متذمرين ذلك التفوق الذي كانوا لا يملكون ما يعارضونه به أول الأمر. ولم يحدث رد العدوان إلا بعد زوال الدهشة، وبلغ أوجه في أقل من ثلاثة أجيال بعد وفاة الفاتح، عندما وجه الشرق رد فعل عنيف إلى منتصر الأمس الذي لم يعد ذلك العدو

الــذي لا غالب له، ثم تجاوز هذا التحـدي الفـاتـح المقـدوني الكبـير وخلفـاءه متجهـاً إلى السـلطة اللاحقة التي هي روحه. لقد كان استلام الأسرة الحمصية مقاليد السلطة في رومة بمثابة رد فعل سياسي وفكري في آن معاً. وبينما كانت آلهة الشرق تتأهب لتنتزع من قلوب الغربيين ما كان حتى ذلـك الـوقت ملكـاً لسـادة الأوليمب (مقـر آلهـة اليـونان) أو الكـابيتـول (مقـر آلهـة رومة) تقدمها جميعاً «ايلا جابال» إله الشمس في مدينة حمص، معلناً نفسه إلهاً كونياً أوحداً للامبراطورية وممهداً لانتصار السيد المسيح.

لا يقدم هذا الكتاب عرضاً تاريخياً لفترة حكم الأسرة السورية، وإنما عرضاً للحياة الفكرية والروحية لعالم زاخر بالتناقضات والصراعات قيض له أن يتوحد أخيراً تحت لواء ديانة ساهمت عبقرية الغرب والشرق معاً في اغنائها. إنه مرآة بانورامية تنعكس عليها أخصب فترات تاريخ المشـرق العـربي قبـل احتضـاره، ممهـداً الطـريق أمـام الحضـارة العربية الفتية.

فراس السواح

مقدمة المترجمة

يتخذ فرانتس ألتهايم، المؤرخ الألماني المشهور في هذا الكتاب إله الشمس الحمصي محوراً لعرض مرحلة تاريخية مهدت الطريق لعصر جديد لا يزال الكثير من أسسه قائماً حتى يومنا هذا. تختص هذه المرحلة بتاريخ الرومان في حقبة كانوا لا يزالون فيها يسيطرون على حوض البحر الأبيض المتوسط والبلدان المحيطة به، وبذلك تتناول بنفس المقدار تاريخ شعوب تلك البلدان التي اثرت في حياة الامبراطورية الرومانية السياسية والاجتماعية والدينية. وبينما يتتبع المؤلف آثار إله الشمس الذي لم يقهر يدخلنا في متاهات التيارات الدينية والفلسفية التي كانت سائدة آنذاك ولا سيما في النصف الشرقي من المعمورة. وقد استطاع فرانتس ألتهايم بمعلوماته الغنية عن ديانات الشرق القديمة ان يبين للقارىء كيف اثرت وتأثرت بعضها ببعض. ولا يشذ عن ذلك الدين المسيحي الذي قدر له ان يكتسح العالم ويطبع عصراً مديداً بطابعه. انه لا يخفى على القارىء ان الدين المسيحي كأي دين آخر قد تأثر ايضاً بالديانات السابقة أو المعاصرة له. يؤكد هذا الكتاب على حقيقة مفادها انه لا شيء من العدم وان حضارة الانسان انما هي نتيجة تضافر جهود اجيال العالمين كافة.

إيرينا داوود

أسس التأريخ
تاريخ الديانة اليوم

من الصعب القـول ان تاريـخ الأديان يعتبر في عصرنا الراهن علماً من العلوم البـارزة. والحق انـه موضع الاهتمام لدى الاختصاصيين في الجامعات التي تعـترف به كفـرع مستقل من العلوم وتدرسه، وكذلك في المؤتمرات التي تنعقـد في سبيله، وفي المجـلّات العلميـة الخاصة به. أمّا في المناقشات العامة والجدال الحي فيكاد لا يلعب دوراً، شأنه في ذلك شأن كل ما اصبح فريسة للاختصاص.

على الـرغم من ذلـك يشكـل الـدين موضـوعـاً ذا أهميـة كبر ى عبر التاريخ، اذ انه قوة من القوى التي خلقت الحضارات وحافظت على حركتها الدائمة. وقلّما نجد مجالاً من مجالات الحياة الانسانية بلا جذور اودوافع دينية شاركت في صيغته، وحيث لا يظهر الدين بشكل مباشر يلاحظ تأثيره بطريقة غير مباشرة لن تكون أقل فعالية. وغالباً ما تكون التصورات الدنيوية التي لم تنفصـل عن أصلها الـديني إلّا ظاهرياً، اشد تأثيراً في سلوك الشعوب واكثر ارتباطاً باللامعقول من تلك التصورات التي تتصل بالعقيدة.

ومن المسلم به ان عصـرنـا الـراهن غير صالـح للتأمـلات في التـاريخ الـديني. ومن المعلوم أيضـاً ان القـوى الابـداعيـة تتراجع ان لم تتفتح امامها امكانيات جديدة تخرج عن اطار الحرص على القديم من جهة ورفضه المطلق من جهـة اخـرى، وان لم نجـد حلّاً ثالثـاً بين ترميم المؤسسـة الـدينية اوبث

الـدعـايـة للإلحـاد، او بين الجـد والتفاهة. والأمر كذلك عندما تفقد الكلمة القدرة على التعبير بسبب تلاشي المد والجزر لدى كل من الطرفين في سياق الـدفـاع عن العقيدة ونقدها. ان النقاش الحي والمستمر وحده يصنع التاريخ الفكـري الحقيقي. ولكن، كيف يمكن نشـوء نقاش في حال عدم وجود قول ذي معنى؟ ان الشرط الأول لفهم التاريخ الديني هو التطرق إلى كل حقيقة فكرية تنطوي على الإدلاء بشيء حتى ولو كان متواضعاً، وذلك دون احكام مسبقة ومع الاعتراف للجانب الأضعف بتقدير مماثل. ولكن، هل يمكن ان ينمـو الفهم والتقـدير عندما يظن المعنيون أنفسهم عارفين حقائق لا تتزعزع، ولا داعي للتجاوب مع الآراء المخالفة؟

جميعنـا يشعـر ان نشـوء عصـر جديـد نعلق عليـه آمـالنا، ومستعدين للمسـاهمة فيـه، يجب ان يبـدأ اول ما يبـدأ بتحطيم كل شكـل من الأشكال التقليـديـة. واذا ما كان للدين عبر التـاريخ تلك المنزلة التي أقرت له سابقاً، فيجب ان يبـدأ ذلـك التحطيم في ميـدانه، واكثر من ذلك: هنا يجب ان يتم التحطيم بشكل أكثر جذرية وحسماً منه في أي ميدان آخر. وكذلك نشعر ان آمالنا إمّا ان تتحقق او تضيع وفقاً لقدرتنا على ايجاد أسس دينية جديدة بدلاً من التمسّك بالحقائق الوهمية واستكمالها بنظيرها.

لاشـك في ان القـائم له وظيفتـه، ولكنهـا من نوع يختلف عمّا يدّعي الـذين يدافعـون عنـه اليوم. ولا يمكن ان تنبثق حياة جديدة إلاّ حيث يكون الاستعداد للموت قائماً. فالوحدة المليئة بالأسرار بين الفناء والصيرورة، تجد معادلاً لها في التناقض بين المحافظة والإبداع. في حال تمسّك القوى المحافظة بكـل شبر من أرضهـا فقـط، يمكن ان تنكشف العناصر التي تبشر بمستقبل زاهر وان تطالب القوى الخلاقة بمكانتها.

ان التضحيـة وحـدهـا هي التي تمنـح الهدف المنشود قيمته، ولا يمكن للجـديـد ان يحتـل مكـانتـه المنـاسبة له إلا بعد اكراه القديم على الاعتراف

بحقـه. وهكـذا تجتمـع القوى الثورية والقوى المحافظة ايضاً في تلك الوحدة التي تشمل القطبين المتناقضين: الحياة والموت.

المقدمات

تنتمي الأحـداث التي سنتبعهـا على صفحـات هذا الكتـاب إلى الماضي، إلى عصر الانقلاب التاريخي الذي كان في الوقت نفسه انقلاباً دينياً.

ونقطـة الانطـلاق هي ظهـور العـالم العربي لأول مرة. ولكن الحدث يخص رومـا واليهـا يرجـع دائـماً مهـما انحـرف عنهـا مؤقتاً. ليست روما القوة الـوحيـدة بين القـوى الشـديـدة البأس التي تبرز في مجرى الأحداث، ولكنها: الـوحيـدة التي آلت اليهـا مهمـة تتـويـج الجديد المتدفق اليها والداخل فيها، بالنجـاح، او مهمـة رفضـه، ولا سيـما في المـرحلة الأخـيرة من تاريخ الديانة الـرومـانيـة، حينـما اصبح القديم والجديد يشكلان تلك الوحدة التي تضمن دون غيرهـا حيـاة تاريخية. وسوف نرى ان القوة المنظّمة والخلاقة والبناءة التي هي جوهر الديانة الرومانية، قد بقيت فعالة حتى النهاية.

وسـوف يستغـرب مثل هذا الزعم من نشأ على العرض المألوف لتاريخ الديانة الرومانية، والقائل بأنه قد تطور وفق مخطط مرسوم كما هو الحال عند تابعي[1] (Wissowa) أمثـال «دويبنـر» (Deubner) و«لآتـه» (Latte) في شكـل متكامل استمر طويلاً، بذلك الاصرار الذي يتصف به الخطأ عامة.

---

١ - فيسّوفا، جورج. عالم لغوي ألماني (١٨٥٩ - ١٩٣١م)، من مؤلفاته «ديانة الرومان وطقوسهم».

حسب هذا المخطط، تتطابق الديانة الرومانية الحقيقية مع جماعة الآلهة والأعياد التي جمعها أقدم تقويم روماني تم وضعه في القرن السادس قبل الميلاد. أمّا فيما بعد فقد أدّى دخول العناصر اليونانية والهيلينستية بشكل خاص، والمؤثرات الشرقية المتنوعة، إلى تأثير شديد للدخيل في ما كان منبته الأصلي رومانياً، فآل هذا الأصل تدريجياً إلى الهلاك المحتوم مثل نبتة عظّى عليها العليق.

بناء على ذلك لم يكن لتاريخ الديانة الرومانية مظهر متألق. وإذا اردت ان تضع يدك على شيء روماني حقيقي فعليك ان تقتصر على ما هو موغل في القدم. ولا شك في ان مثل هذا الاقتصار خطير، خاصة لأن المعلومات المتوفرة عن هذه المرحلة قليلة فضلاً عن انها لم ترتبط باسم مؤرخ أو شاعر مشهور، هذا يعني ان ما تبقى من احداث وصراعات ـ بين سنتي ٥١٠ ق. م، و ٣٩٤ بعد الميلاد (أو قريب من هذه الحدود) وهي فترة لا تقل عن ألف سنة ـ لم يكن سوى انحطاطاً مقابل ما يقال عنه انه روماني حقيقي. وعلى هذا الأساس لم تجر في هذه الحقبة التاريخية إلا أحداث استطاعت ان تؤخر انهيار الديانة الرومانية إلى حين ولكنها لم تكن قادرة على ايقافه.

أما اليوم، فقد اتضح ان هذه النظرة غير مصيبة. والواقع ان جملة الطقوس القديمة قدم الزمن كانت بعيدة كل البعد عن أن تحمل طابعاً قومياً بحتاً. كانت الآلهة اليونانية والإترسْكية قد دخلت صلب هذه الطقوس. بالاضافة إلى ذلك فقد اختفت ظاهرة العالم الروماني الأصيل بقدر ما انقسمت روما إلى مكونات شعوبية مختلفة، منها اللاتين (Latines) والسابيون (Sabines) والإترسكيون (Etrusc) . لذا اذا ما أردنا العثور على ظاهرة رومانية في جوهرها وجب علينا البحث في الطريقة التي تم بها تحويل الموروث أو الدخيل. وقد اتضح ان الطابع الروماني لم ينطبق على فرد من الآلهة بقدر ما انطبق على مفهوم الألوهة الذي يشمل جماعة الآلهة كلها. هنا

برز العنصر الروماني بوعي بين العناصر الايطالية واليونانية ثم الشرقية فيما بعد.

ومع ادراك هذه الحقيقة سرعان ما اعيد النظر في امور اخرى لتقديرها تقديراً منطقياً.

بعد ابطال الادّعاء بأن فجر روما دون غيره هو التعبير الحقيقي عن الدين الوطني، كان لا بد من انتقال محور الدراسات إلى العصور اللاحقة. وبدلاً من ان يتجه البحث عن الشخصية الرومانية إلى حيث ما زال الدين برعماً صغيراً لم يتفتح بعد، صار عليه ان يلتفت نحو عصور الازدهار والأحداث الزمنية التي اضطرت فيها تلك الشخصية إلى اثبات وجودها. ليست البدايات الغامضة اهم موضوع تاريخ روما ودينها، وانما قرنا الجمهورية الأخيران وعهود القيصرية اللاحقة. ويجب ان يحل محل تقويم الأعياد القديم معاصروا تلك الأحداث والمؤرخون وأقوال كبار رجال الدولة.

لقد ركزت الدراسات السابقة على الطقوس والشريعة الدينية وكل ما له علاقة بالمؤسسات. ولكننا نؤكد ان الدين الروماني اذا كان قد ازدهر واتخذ طابعه الخاص به في العصور التي فرضت عليه ان يجد هويته في النضال والصراع، فلا يمكن البحث عن جوهر هذا الدين في الأنظمة التي تجمد فيها إلى مجرد شكل. فالبون شاسع بين مايلاحظه تاجر الآثار القديمة، وما يهتم به المؤرخ الذي يلتفت نحو القوى الخلاقة. ولما كان المؤرخ يحتاج إلى خلفية يبرز أمامها موضوعه، فقد يفيده في بعض الأحيان الجامد أيضاً لعرضه التاريخي، ولكن ليس كموضوع تاريخي مستقل بل لمجرد الحاجة إليه لإبراز الحافل بالمستقبل بخاصيته وربما تفرده.

إله الشمس في العصور الكلاسيكية المتأخرة

يمكننا العثور على آلهة ذات طبيعة شمسية أو آلهة تمثل الشمس نفسها منـذ أقـدم العصـور، وهي متنوعة تنوعاً عجيباً. انها موجودة في كل الديانات القـديمـة تقـريبـاً، وفي صفـوفهـا نجـد كلاً من إله «رع» المصري و«ميترا» الإيـراني ثـم «هيليوس» فإله الشمس الروماني المحلي القديم. غير أننا لانقصد متـابعـة تلك الآلهـة بالتفصيـل، لأن الإله الذي سوف نركز عليه لا يعود إلى العصور القديمة وانما إلى العصور الكلاسيكية المتأخرة. ويتزامن صعود إلهنا هذا لفـترة معينـة مع الإله ميترا، ولكنهما يبقيان منفصلين. وبينما نشأ الواحد في أقـدم عالم من عوالم الآلهـة الهنـدوإيـرانية، نشأ الآخر في قلب شبه الجزيرة العربية. وبينما ظلّ الأول ملتصقاً بأسراره ومرتبطاً بدائرة عباده الضيقة، تحلل الثاني شيئاً فشيئاً من الروابط الموروثة متخذاً طريقاً آخر مختلفاً كلياً.

ان تاريـخ إلـه الشمس في المـرحلة المتأخـرة هو تاريـخ عملية تطهير ية بشكـل اجمـالي. استقـر طقســه البدوي المنشأ في احدى المدن السورية. وهو بغـرابتـه وخلوه من كل القيـود، يثير ثائرة العالم الغربي ويستدرجه إلى دفاع عنيف، ولكن بفضـل الإبداع الأدبي والفلسفة الأفلاطونية المحدثة، واخيراً وليس آخـراً بالقدرة التحويلية الخاصة بالديانة الرومانية والسياسة الرومانية، يتحـول إلـه «إيـلاجبـال» (Elagabal)، ٢١٨ - ٢٢٢م، المـرتبـط بالمجـون والمعتقـدات الشـرقيـة القـديمـة إلى أنقى الآلهـة جميعهـا، ليـوحـد الـديانة الكلاسيكية مرة اخرى.

كانت هذه الظاهرة، وليدة الوثنية الأخيرة ـ عظيمة لدرجة انها طبعت بشكـــل حاسم المسيحيـة المتـزامنـة معهـا، وفيهـا استمـرت قبـل كل شيء تصـورات الأفـلاطـونيـين المحـدثين عن إله الشمس «هيليوس». والحق ان التحـويـل الفلسفي الذي كان إله الشمس دائماً موضوعاً ملائماً له، جعل منه أحد الأشكال الكبرى التي لا تنسى لدرجة ان تأثر به حتى خصومه. ولا يزال عيد ميلاد المسيح يذكرنا بانه يحل محل عيد ميلاد إله الشمس الروماني الذي لم يقهر. اما «قسطنطين الكبير» (٣٠٦ ـ ٣٣٦م) فكان أكثرهم تأثراً بهذا الإله.

ان تحول «قسطنطين» إلى المسيحية (٣١٢م) هو النتيجة التي ستنتهي إليهـا التأمـلات التـالية. لم يكن أول قيصر مسيحي مجرد رائد من رواد الدين الجديد بل كان علامة في تاريخه. وباعتباره مؤسس دولة مسيحية، فقد وحّد ما ظهر انه غير قابل للتوحيد. ونظراً لأهميته، لا يقارن «قسطنطين»، ضمن هذا الإطار، إلاّ بالقديس «بولص» و«أوغسطين».

يعتـبر تطـور الـدين المسيحي بحـد ذاته موضوعاً كبيراً من موضوعات كتابة التاريخ. ويحلو اليوم لبعضهم أن يجعله تنفيذاً لخطة تبشيرية، يتبوأ فيه «قسطنطـين» المكـانة التي يستحقها. وهكذا آلت الأمور الى ان سيرة رجل، (كـان المؤرخ «ياكوب بوركارت» (Jakob Burckardt)، مازال يحكم عليه حكماً قاسياً)، قد أصبحت دفاعاً عن العقيدة لدرجة ان كاتب سيرته الأخيرة لم يتردد عن مدح بطله لقتل زوجته خنقاً. اما هذا البحث، فلا يطمح ولا يسعى إلى تحقيق مثل هذا الهدف. سننظر إلى اعمال «قسطنطين»، ونقيّمها كما ننظر إلى اعمال سائر الناس، ولن نسأل عما اذا كان لها مغزى آخر وما هو.

هذا يعني ان اعــمال «قسطنطــين» تلك، لم تكن تنفيـذاً لخطـة محددة مسبقة، وانما كانت نتيجة لأسباب معينة وحاسمة. وكذلك لم تجر أعماله دائماً على خط مستقيم، بل سلكت طرقاً ملتـويـة احيـانـاً وفقـاً للظروف. فكان «قسطنطـين» مدفـوعـاً ودافعاً على حد سواء. واخيراً لا يهمنا هنا ان نجد له

التبريرات وانما ان نجد مكانه في التاريخ. وبما ان الزمن محدد وفترة استمرار ظاهـرة تاريخيـة محددة أيضـاً، فلا خلاف في هذه الحـال بين تاريـخ الـديـانـة والتاريخ العادي.

ان التخلي عن اثبات رسالة تبشيرية في مجرى التاريخ، لا يعني في حال من الأحوال التخلي عن السماوي لصالح الدنيوي، فللسماوي ايضاً اهميته، غير ان البحث عنه يجب ان يتم في غير هذا المكان.

ان من يتتبع مصير إله الشمس في العصور الكلاسيكية المتأخرة لينتابه شعور مزدوج. وسوف يجد نفسه امام السؤال عن مدى كون ذلك المصير وما يتعلق به، تطـوراً دينيـاً، أم ان توافق الظـروف السياسية قد لعب دوراً كبيراً فيه. وقد يكون الاختيار بين هاتين الامكانيتين طبيعياً ولكنه لا يصيب جوهر الأمر. فالدين والدولة كقطبين للحياة الإنسانية مرتبطان ـ كما قال «شيّللينغ»[٢] (Schelling) ـ ارتبـاطـاً وثيقـاً لا يسمـح لأحـدهما ان يفعـل فعله الحقيقي دون الآخر. واذا ما فهمنا ذلك حق الفهم فانه يعني ان الدين الحقيقي والسياسة الحقيقيـة فقـط يمكن ان يشكـلا وحـدة متكـاملة يؤثـر من خلالها الواحد في الآخر، وفي هذه الحال يحل الجدال التاريخي محلّ الاختيار الذهني بين الإمكانيتين.

وأفضـل مثـال على ذلك الديانة الشمسية. فما بدا أول الأمر متداخلاً محيّراً، يتجلى كتسلسـل منطقي عنـدمـا ننظر اليه من هذه الزاوية. فبقدر ما رفضت سيـادة إلـه الشمس في صورتـه البدوية الخالصة على بانثيون روما في أواخر أيامها، أقر له، بعد تطهيره دينياً وإلباسه ثوباً فلسفياً، طواعية بكل ما كان يطمح اليه، وما كان يحق له ان يطمح اليه. وكما كان الانتكاس السياسي الـدافـع إلى التعمق من ناحيـة، كذلـك كانت فرصـة التفكـير هذه شرطـاً

---

٢ ـ شيلّينغ، فريدريخ فيلهيلم يوسف: فيلسوف ألماني، ١٧٧٥ ـ ١٨٥٤م.

للنجاح النهائي من ناحية اخرى. واخيراً لم تكن مصادفة توافق الظروف التي ساهمت في نمو الإله وانما التشكيل والتنظيم الدائبين في المجال السياسي ايضاً.

التاريخ وفلسفة التاريخ

في عصرنا تغيرت ظروف كتابة التاريخ لدرجة انها تعاني أزمة تتمثل في انقسام التاريخ إلى قسمين:

إلى البحث التـاريخي الجـزئي وفلسفـة التـاريخ، أي التاريخ وما وراء التاريخ. وقد ادى هذا الانقسام إلى عداء شديد بين هذين الاتجاهين انتهى إلى الخيار بينهما.

إلا انه يجدر بنا ان نذكر ان كلا الاتجاهين المتعاديين يحتاج بعضهما إلى البعض الآخــر ولا سيــما في جوهـرهما، حتى ان خاصيتهـما لا تبرز إلا على خلفيـة المشـترك بينهـما، «الضد يظهر حسنه الضد» كما يقول المثل المعروف. لذا فليس هنـاك انفصـال حقيقي بينهما بل يجب ان ننظر إلى التاريخ باعتباره فلسفة التاريخ والعكس بالعكس.

ولكن، ما الذي يميز المؤرخ المعاصر عن مؤرخ مرحلة ما قبل النصف الثـاني من القـرن التـاسـع عشر؟ ان الاختـلاف الجـوهـري بينهما يكمن في التخصص الـذي تعـاظم شأنـه وطبـع عصرنا نهائياً بطابعه المتميز عن كل ما سبقـه. فقـد تطلبت المادة الغزيرة ان يقصر الباحث بحثه على فترات محددة وشعـوب معينـة، الأمر الذي ادى إلى فقدان الرؤية الشمولية. ولكن، يجب ان نفرق بين التخصص الذي يفرضه غنى المادة ولكنه يشترط وجود الوحدة المتكـاملة، وبـين التخصص الذي اصبح روح البحث العلمي فيعدل عمداً عن هذه الوحدة المتكاملة ويضع محلها الجزء.

وقـد ادى هذا التنـازل الـذي يتضمنـه هذا المـوقف إلى فرق آخر بين الحاضر والماضي. ويتمثل هذا الفرق في ان البحث التاريخي الجزئي والمستقل في رأيـه، لم ينفصـل عن صورة التـاريـخ العالمي المتكاملة التي وجب تقديمها فحسب، بل كذلـك ابتعـد عن كل شكـل من أشكال الفلسفة التاريخية التي كانت ايضاً ـ سواء اكانت تعتبر نفسها الأساس أم التتويج ـ تمثل الكل. وقد ترك هذا الانفصال أثره في الطرفين.

كانت هنـاك محاولات للتغلب على سوء الحـال هـذا. ولكن، بأي طريقـة تم ذلـك؟ ان المجـلّات ومجلدات التـاريـخ العالمي تبذل جهداً ليس بقليـل لتقـدم لقـرائها عرضاً شاملاً. ولعدم وجود وحدة متكاملة، يتم توزيع المادة كلها على مؤرخين متخصصين يقدمونها بشكل ابحاث جزئية. وبعبارة اخرى تبذل محاولات للوصول إلى صورة التاريخ المتكاملة عن طريق تركيبها من الأبحـاث الجـزئيـة. ولكن، متى تشكّـل كلٌ روحي بمجرد جمع الأجزاء حتى ولو كانت متعددة؟

اذاً، لدينـا من جهـة فلسفـة التـاريخ المهددة بالتفريغ من المادة، ومن جهـة اخـرى لدينـا المادة التي تفتقر إلى الوحدة والصياغة الفلسفية. ولكن، كيف يمكن توحيد الطرفين المنفصلين عن بعضهما واعادة تركيبهما إلى وحدة متكـاملة؟ لا شكّ في ان الحـل لن يكـون في اقـتراب المـواقف، بل لا بد من البحث عن خطة اساسية جديدة.

حتى الآن دار حديثنـا حول معـارضي فلسفـة التاريخ، وآن الأوان ان نذكـر ان الصـورة التي رسمهـا «شبينغلر»[٣] (Spengler)، وتـابعوه ليست إلا امكانية واحدة إلى جانب امكانيات اخرى. والواقع ان التساوي بين فلسفة

---

٣ ـ شبينغلر، أوسفـالـد: ١٨٨٠ ـ ١٩٣٦م، فيلسوف حضاري ألماني. منَ أهم مؤلفاته: «تـدهـور الحضـارة الغـربيـة»، الـذي رأى فيـه ان الحضـارة الغـربية وصلت إلى مرحلتها الأخيرة. (المترجمة).

التاريخ والرؤية الشاملة لأحداث الحياة الإنسانية، أوبين الفلسفة والاقتصار على ملامح تلك الأحداث الرئيسة المفترضة لنظرةٌ محدودةً. فلا التوسع ولا التجريد يشكلان جوهر المعرفة الفلسفية التاريخية، التي، على كل حال، لا تستطيع تجنب الحقائق الواقعية والمعلومات الجزئية. وقد تزودنا دراسة مرحلة تاريخية، طالما تمت بما يكفي من التعمق، بأفكار فلسفية أوفر من «شعور غامض» بآفاق التاريخ العالمي.

هنا يجب ان نتساءل مبدئياً: أفلا يكون البحث الجزئي أقدر على ادراك ظاهرة تاريخية ما، وعلى الفهم المباشر لندرتها وعموميتها من العرض الشامل الذي يعتمد على مفاهيم عامة؟ والحق ان التاريخ لا يتجلى في الكل وحده بل في كل تفصيل، إلا اذا كان الجزء يستمد حياته من الكل ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً. اذاً، فعلى فلسفة التاريخ ان تهتم فضلاً عن اهتمامها بالكل، بالتفصيل ايضاً، وبالمقابل فعلى البحث الجزئي ان يشتعل فيه على الأقل شرر من تلك الروح الإلهية التي تسود الكل.

ومعنى ذلك ان الأبحاث الجزئية الخالية من الأفكار الفلسفية يفضل ألا تكتب على الإطلاق. وبالمقابل يعني ايضاً ان فلسفة التاريخ لا وجود لها إلا اذا كرّست نفسها للأبحاث الجزئية لا سيما لأجزائها البناءة. ولا تنجم كتابة التاريخ إلا عن التفاعل بين البحث الجزئي والفلسفة لتحقيق الوحدة المتكاملة. في هذه الحال تُشرف حتى الأعمال الصغيرة، كما ان فلسفة التاريخ تمتنع عن ان تكون مجرد تعميمات. أما في ما عدا ذلك فيصبح البحث الجزئي لا طائل تحته وتصبح فلسفة التاريخ عديمة الجدوى.

الفصل الأول

إله الشمس الحمصي

ان معنى تاريـخ القـارة الآسيوية حياة في مساحات واسعة وسط طبيعة قاسيـة ورهيبـة في جبر وتهـا . ويبدو انها لا تعرف ذلك الاعتدال الذي يسمح للإنسـان أن يفطن إلى نفسـه ، ويشعـر بذلك الانسجام بين الوجود والطبيعة كما هو الحال في مناطق اخرى. تبلغ الأنهار والجبال والصحارى مقاييس تمنع السكان عن الحركة بحرية . ويتجاوز البرد والعواصف الثلجية في الشتاء كل الحـدود وكـذلـك حر الصيف وجفـافـه وفيض الأزهـار في الـربيـع . وتؤكـد الكـوارث الطبيعيـة هذه التقلبـات المنـاخيـة التي يبـدو الإنسان متروكاً تحت رحمتها . وكلما توغلت نحو قلب القارة ازدادت ظواهر الطبيعة وحشةً .

اذا اعتبرنا الدردنيل حدوداً لآسيا كانت سورية جزءاً منها . ولكن نزوة من الطبيعـة أضـافت إلى هذه القـارة شريطـاً ضيقاً انقلبت فيه الظروف إلى عكسهـا ، فتحـولت الـرتـابـة إلى التنوع ، إلى عالم تدب فيه الحياة ، وتحولت القسـوة إلى الصفـاء المـرح . ان سوريـة بصفة عامة بلد من البلدان المحيطة بالبحـر الأبيض المتـوسط تربطه روابط الأخوة بإيطاليا واليونان وجزر بحر إيجه حيث نجد تشابهاً في شفافة الألوان اللماعة والمتغيرة في نفس النور ونفس الهواء .

ولا يمكن فهم سوريـة إلا باعتبـارها منطقة انتقالية مع التنبه الى كثرة الظواهر الفردية وتدرجها ومميزاتها ، وفي بعض الأحيان فوارقها العميقة . يبدو كل هذا مطبـوعـاً بطـابـع قانـون خاص تلاحظ بصماته على المناظر الطبيعية وطريقة العيش والتطورات التاريخية التي شهدها هذا البلد .

سورية : البيئة الجغرافية

تظهـر التناقضات أول ماتظهر في البيئة الجغرافية . تمتد سوريا من البحر الأبيض المتـوسـط غربـاً إلى الصحـراء شرقـا، مما جعلها ملتقى الدروب بين البلدان المجـاورة التي كان لها دور في تلوين خصـائصهـا . واذا ما اضفنـا السلسلتـين الجبليتـين ـ جبـال لبنـان الغـربيـة وجبـال لبنان الشرقية ـ اللتين تتصفان على طول امتدادهما بتعاقب المناظر المختلفة من حيث توزع السكان والزراعة، وجدنا مرة اخرى ان التنوع وتغير المشاهد والظواهر الخاصة، او ان شئت التنـاقض، هي التي حددت صورة البلد. وفي طبيعـة الحال فقد أثرت هذه الصورة في أهل البلد وفي الآلهة والديانات التي نشأت في احضانها.

تتميـز فينيقيـا ـ منطقـة البحـر الأبيض المتوسط الساحلية ـ عن مناطق سوريـة الـداخليـة المؤلفـة من منطقـة الجبـال الكلسيـة والسهول الشمالية . وكـانت تطـل على البحـر مدن مثـل صور وصيـدا وجبيـل وأوغاريت (رأس شمرة)، وكلها مواقع حضارات عريقة بدأت تكشف لنا كنوزها . يعيش على هذه الأراضي الخصبة والمـزروعـة، والمفتـوحـة للمؤثـرات الأجنبيـة بفضل المـلاحـة والتجـارة، شعب يتصف بالنشـاط والـدهـاء ويعرف اين مصلحته وكيف يستفيد منها. وكما تكيّف التاجر الفينيقي بكل الظروف على اختلافها كذلـك يستفيـد الفـلاح المستقر على منحـدرات جبال لبنان الغربية من كل بقعـة من الأرض. تمتـد حقـولـه إلى ارتفاع عالٍ عن طريق انشاء المدرجات أينما كان الماء المنعش ينبثق من الأرض. هناك المروج والحقول وغابات الدُّلب

الصغــيرة وأشجـار التـوت والـزيتـون ، وبينهـا الكـروم ومنـازل الفـلاحـين والمستأجـرين المتـواضعـة . وتعلوهـا زرقـة البحـر نافحاً نسائمه العليلة . تدِرّ الـزراعـة ، التي يمارسهـا الفـلاحون بنشاط ، واغلب الأحيان على مساحات صغـيرة ، غلة وفـيرة من الثـمار الطيبـة وزيت الـزيتون والنبيذ الحلو القوي . وتتمتـع بعض المنـاطق ، ولا سيـما الساحلية منها ، بفيض من المزروعات التي تملأ الدنيا روعةً .

تقع مدينة بيروت مثل جزيرة وسط الشريط الساحلي الفينيقي . وقد كانت وطن النحـوي «بـروبوس» (Probus) (في أواخر القرن الأول الميلادي) الـذي احيـا الـتراث الأدبي الـلاتيني الـذي طواه النسيـان . كانت بيروت القـديمـة ، كمقر لمدرسة علوم الحقوق الرومانية المتأخرة ، تعتبر ارضاً تابعة لدولـة اجنبيـة تنطبق عليهـا القـوانين الايطالية . وكان الساحل المتاخم لآسيا الصغـرى منطقـة خاصة اخرى . وبينما طبع الجنوب بطابع الشعب الفينيقي ومـاضيـه ، اتصف الشـمال بطـابـع هيلينستي عائـد إلى عصـر تأسيس المدن الهيلينستيـة . لقـد اسس هنـا السلوقيـون كلاً من انطـاكية على نهر العاصي عاصمـة لهم ، والمينـاء سلوقيـة ، وفي الـداخل أفامية التي كانت ركناً عسكرياً ومسقـط رأس الفيلسـوف الكبـير «بـوسيـدونيـوس» (Poseidonios) (حوالي ١٣٥ ـ ٥٠ق . م) ، ثم مدينة اللاذقية الواقعة في أقصى جنوب هذه المنطقة . وقـد ترك العصـر الـرومـاني بصماته على مدينة اللاذقية حيث لا تزال تذكر به الأعمدة ذات التيجان المزخرفة بنقوش فخمة ، والأقواس والأقبية والأخشاب المخـروطـة التي تزين بنـاء ضخـماً يعـود إلى عصر السيفيرين* ، وآثار القرى الـرومـانيـة والقصـور والكنـائس المسيحية والأديرة التي تكثر في البلاد . وتقام الأبنية الحجرية الحديثة بالأشكال المعمارية القديمة للحفاظ عليها .

---

* ـ السيفيريين : الأسرة التي أسسها القيصر سبتيموس سيفيروس .

يفصل جبل لبنان ومنحدراته الشمالية المناطق الداخلية عن السهول الساحلية. ومرة اخرى يتغير المشهد، فمن عَبرَ قمم الجبال يظن نفسه في بلد آخر. تتراجع علامات الحياة المدنية التي غلبت على فينيقيا والمنطقة الساحلية السورية في الشمال لتحل محلها المناظر الريفية. ولكن بدلاً من صغار المزارعين النشيطين نجد الآن كبار المزارعين الذين يملكون الأراضي الواسعة. ونادراً جداً تتخلل مربعات الحقول والمروج غابات شجرة الجوز والمشمش والإجاص الصغيرة المحاطة بسياج متراص من الحور، فتغلب على المناظر الرتابة بدلاً من كثرة الأشكال وتغير ألوانها.

بعيداً عن البحر المنشِّط المفتوح على العالم، بعيداً عن اثارته واغرائه يفقد الإنسان دهاءه وقدرته على التكيف. ان الحاجة إلى اليد العاملة موجودة مع تقدير قيمتها، لذا يقوم المزارع المستأجر بعمله اليومي الشاق، غير ان افقه اقل سعة وقبوله لتحمل المسؤولية اقل حماساً. لقد تحول إلى فلاح اكثر صلابة شديد البأس ولكن شعوره اكثر غلاظةً.

يشكل المنخفض بين جبال لبنان الغربية والشرقية، أي سهل البقاع ووادي نهر العاصي، مناطق سورية الأوفر غلة، كما نجد إلى جانب حقول الحبوب الكروم، وقد اشتهرت مرتفعات زحلة وشتورة بنبيذها اللذيذ. تقدم هذه الأرض الغذاء ليس لأهلها المستقرين عليها فحسب بل ايضاً لجماعات البدو الذين يتدفقون اليها في الخريف لترعى قطعان جمالهم وأغنامهم على الحقول بعد موسم الحصاد، آتين من عالم آخر حاملين معهم عاداتهم وطرائق عيشهم فينقلونها إلى أهل البلد. ومثال على ذلك شكل الأكواخ التي يسكن فيها الفلاحون على ضفتي العاصي والليطاني والتي بنيت على غرار خيم البدو.

واذا ما انتقلنا نحو الشمال لاحظنا تغيراً جديداً. لقد اختفت الخيم المعمدة المسكونة من العمال الزراعيين وكذلك منازل الفلاحين النظيفة

والبيضـاء التي رأينـاهـا مسيطـرة على منـاظـر المنـاطق الداخلية والساحلية، وحلت محلها الأكواخ المخروطية الشكل المبنية من الحجر والطين. وتظهر هذه القباب في مجمـوعـات قد يقـل او يكثـر عددها. في بعض الأحيان قد تكون محاطـة بسـور أو ترتفـع على تل أثـري. هنا يسكن الفلاحون مع الرعاة جنباً إلى جنب لأن الأراضي الـزراعيـة المـروية تتحول شيئاً فشيئاً إلى البادية غير الخصبة. تمتد المساحة غير المزروعة إلى آفاق بعيدة من حدود حلب الجنوبية الشرقية وعلى ضفة الفرات الهابط حيث غالباً ما يتراكم التراب الناعم مكوناً كثباناً وأكواماً ذات أشكال غريبة. ومنذ الآن نلتقي بصاحب الملكية الكبيرة الذي يفضل حياة الفروسية الأرستوقراطية ـ اقصد الحياة البدوية.

وتشكـل الأراضي الممتـدة من خلف جبـال لبنـان الشـرقية إلى حدود سوريـة الشـرقيـة منطقـة تتناوب فيها البراري والأراضي الخصبة. تحدها في الجنوب جبال اللجاة، وهضبة حوران بصخورها البركانية الوعرة التي اضفت على المنازل المكعبة الشكل منظرها الموحش. ثم تأتي مدينة دمشق وفي قلب الصحـراء الـواحـة تدمـر؛ وهنـاك في الشمال الشرقي من جبال لبنان الشرقية مدينـة حمص وبعض المـدن المجاورة لها. وكثيراً ما تتصل المناطق الصحراوية مبـاشـرة بالبسـاتـين الزاهية. لن ينسى العائد من الحماد إلى دمشق ابداً هذا التناقض بين المنظرين والأثر الذي يتركه في النفس.

وتظهـر هذه الفـروق ايضاً بين العناصر الشعبية حيث يجتمع البدو مع الفلاحين والرعاة مع اهل المدن، كما ان هناك الآراميين المستقرين إلى جانب الأعـراب البـداة. مرة اخـرى تتغير طبيعة الناس. إلى جانب الصحراء التي تفرض على البدوي حياة قاسية كلها صراع، نجد المنطقة البركانية الموحشة ثم منحدرات جبل حرمون التي تارة تغطيها الثلوج وتارة تحرقها الشمس. ان ظروف البيئة الطبيعية هذه هي التي تفسر شجاعة الدروز وبأسهم والتعصب الـديني الـذي اشتهـرت به المـدينتان حماة وحمص قديماً وحديثاً. اتصف اهل

هذه المنطقة ولا يزالون بشدة الحماس والتحفظ وبالإرادة التي لا تلين والمكر، بالخطورة في الصراع وجهاً لوجهٍ أو بالمهادنة وبالحذر الشديد تجاه الأجانب.

آلهة سورية

كما تتنوع مناظر سورية وسكانها كذلك تتنوع آلهتها. ان البون شاسع بين الآلهة التي كان منشؤها في المناطق الساحلية وتلك التي نشأت في السهول الداخلية او عند الحدود الشرقية بالقرب من الصحراء.

كان الإله «آدونيس» الجميل احد الآلهة الساحلية، وكانت نساء جبيل يندبنه على ضفة النهر المسمى باسمه. تقول الأسطورة ان «آدونيس» اصيب في الربيع وهو في الصيد بجرح أودى بحياته. لذا تتلون مياه النهر في كل ربيع باللون الأحمر. وعندئذ اقيمت طقوس الندب التي كان الناس يذكرون فيها علاقة «آدونيس» مع إلهة الحب، وموته ثم بعثه؛ وكانوا يُعدون حدائق آدونيس[1] ويحملونها مع تمثال الإله الميت فيلقونها والتمثال في النهر. في كل مكان ارتبطت حياة النباتات وفناؤها بالإله آدونيس وفي بعض الأحيان استمر هذا الارتباط بقوته الأولى. ولا يزال منبع نهر آدونيس المنبثق من أعلى جبل لبنان بالقرب من القرية أفقا يبعث في النفوس الرهبة التي يثير فيها هذا التضاد بين الازدهار والفناء أي بين الحياة والموت قطبي الطبيعة.

ان الصعود على ضفة نهر آدونيس الهابط لرحلة شاقة. تتناوب الأودية المظلمة التي تستوقف النظر والمنافذ التي تسمح برؤية الشاطىء وسطح البحر

١ ـ حدائق آدونيس: سلال صغيرة كانت النساء يضعن فيها تراباً ويزرعن حبوباً مختلفة الأنواع. لمزيد من المعلومات عن طقوس آدونيس راجع كتاب «لغز عشتار» لـ «فراس السواح».

المتلألىء. وتنتهي الطـريق إلى واد عميق محاط بجـدار صخري رمـادي، حيث يخيـل إلى من يدخـل إليـه أنـه في نصف الـدائـرة من مدرج مسـرح. هناك منبع النهر وفي الوقت نفسه منبع الحياة ومصدرها. ينبثق الماء المتدفق من

بين الصخور إلى ضوء النهار حيث يخرج من مغارة مظلمة مسقط مياه عظيم ولا يلبث ان يشق طريقه في سرير عميق مسرعاً نحو البحر. انه لمشهد يترك في النفس أثراً عميقاً ولا سيما بفضل منظر الطبيعة المحيطة بمكان ولادة الماء. وتبـدو الـدنيـا كلها حجراً حيث ترتفع أكوام من الصخور والحصى في جدران عمـوديـة وسـامقـة، مغلقة وممتنعة، مجدبة. ويحدث وسط هذا الجمود الشبيه بالموت ان ينبع الماء المحيي والمنعش، الماء المقدس الذي يجعل النباتات تنبثق وتـزدهـر فيضـاً اينـما انتشر. ان هذا التضاد بين الصخر والخضرة الغناء، بين الفنـاء والنمـو لعجب العجاب. ولكنه يحصل فعلاً ان الماء المنعش يتفجر من بين الصخور الميتة ـ ينبثق من مشهد الطبيعة الأخاذ الذي هو خلق إلهي حقيقي.

هنـا حيث ينـدمـج المـوت والحياة أي الجدب والخصب الفياض تظهر كاهنـة الحب. توحـدّ بنت الهـوى هذه، المتأصلة في الطقس الديني، في ذاتها الميـدانين: المتعة المفرطة وذلك العبث الذي تنقاد له فيما تفعل. ومن المؤكد أن المـرأة في البـدايـات كانت تتمتـع بمكـانة أرفع من الرجل، وان الإلهة كانت متفـوقـة على عشيقهـا. وحتى يومنـا هذا لا تزال صورة الإلهـة حية في قلوب النـاس، لا صورة الإلـه «آدونيس»، فأهـل المنطقـة يأتـون بالمصابيح الزيتية إجـلالاً لسيـدة هذا المكـان آملين منهـا العـون والشفـاء. ووفق عادة قديمـة يعلقون قطعاً من الأقمشة على شجرة التين المقدسة القريبة من المعبد تقرباً منها.

لم يكن «آدونيس» الإلـه الـوحيـد. لقـد نشأ في «غـزة» كل من «بعـل مارقـود» إلـه الـرقص و«مـارنـاس» إلـه المياه والأمطـار. كذلـك أقيمت

الاحتفـالات الميـاماسية* الماجنة التي كانت النساء فيها يستحممن عاريات، فيقبـل الشبـاب على هذه الاحتفالات بملء قدراتهم العقلية ويغادرونها وقد تبـدلت حالهم . . والحق ان كل هذه الطقـوس اتصفت باللهـو والمجـون الخـاصـين بأعياد ديانات الخصب. فهكذا تعبر عن نفسها خصوبة الساحل السـوري وابتسـامـة هذا البحـر التي تشبه ابتسامة المرأة. وكان «أفروديت» و «آدونيس» يقفان في صف واحد مع «سيبيل» و «آتيس» و «إيزيس» و «أوزيريس».

أمـا الآلهـة التي نشأت في شمال سوريـة أو في السهـول الـداخلية فلها صورة اخـرى. انتشرت عبادة «عترجاتيس» (Atargatis) في المناطق الوسطى والشـماليـة. وكـان اشهـر معـابـدهـا في «بـامبيكـة ـ هيرابـوليس» (Bambyke-Hierapolis) (مـديـنـة منبـج اليوم). هنا ايضاً تقدم الأنثوي على الـذكـري. وسـواء في «بـامبيكـه» او في اماكن العبادة الموجودة في لبنان، كان الـدور الـذي لعبه «حدد»[1] دون دور رفيقته «عترجاتيس» (ما عدا في مدينة هترا في بلاد ما بين النهـرين). كذلـك عرف البغـاء المقدس في بعلبك حيث عبـدت «عـترجـاتيس» تحت الاسم «فينـوس» إلى جانب «جوبيتر ـ حدد» و «مركور ـ شَمَش» مشكلين الثالوث الإلهي. وكانت الإلهة في «بامبيكه» تطلب من عبـادهـا الـذكـور قربـانـاً يغير مجرى حياتهم بشكل اكثر جذرية من حياة الفتيـات اللواتي كن بمـوجب الطقس الـديني يقـدمن شبـابهن لأول غريب يتعرض لهن[2] وهناك ايضاً ذلك المجون الذي يخبرنا عنه «لقيان» السوري

---

* ـ احتفالات لإلهات المياه.

١ ـ حدد: شكـل من أشكـال الإلـه «بعل» وهو إله المطر والسحاب والصواعق وكل مظاهر الخصب عند السوريين. راجع فراس السواح «مغامرة العقل الأولى».

٢ ـ لمزيـد من المعلومـات عن طقـوس أعيـاد ديـانـات الخصب راجـع فراس السـواح «لغز عشتار»، الفصل «عشتار السوداء».

(حـوالي ١٢٠ ـ ١٨٠م) «أن النسـاء يرغبن في الخصيـان وأن هؤلاء بدورهم تدفعهم شهـوة جنـونيـة إلى النسـاء؛ انهم لا يعـرفـون الغـيرة بل يعتـبرون ممارساتهم طقساً مقدساً جداً».

لم ينظر إلى كهنة عترجاتيس الذين كانوا يعيشون من الصدقة نظرات الاستحسـان. وقـد وصفهم «أبوليوس» (apuleius) (القرن الثاني الميلادي) وهـم يرقصـون رقصـاتهم الجنـونيـة على نغـمات المزمار المثيرة ويعترفون علنياً بذنوبهم فيجلدون أنفسـهم بالسوط أمام الجماهير المتفرجين عليهم أو يجرحون أذرعهم بالسيف حتى يسيل الدم، وكل ذلك طمعاً في الصدقات السخية. افتخـر احـد كهنتهـا المتسـولـين باسمها بالحصول على ما لا يقل عن سبعين كيساً من الصدقات. كان «لقيان» قد نال بسخريته من كل ما له علاقة بمعبد بامبيكـه. ولكن هذا المكـان الـذي كان ينظـر إليـه هذا الأديب المتمدن بعين السخريـة كـان في يد كهانة قوية محددة الهدف تسيطر على قلوب المؤمنين. وكـان اهـل سوريـة وسكـان البلدان المجـاورة لها يتهافتون على بامبيكه ايام احتفالات عيد الربيع فجاءت المعبد أموال هائلة من بلاد العرب وبابل وكبدوقية[٤] وكيليكية، أما معبد بعلبك بأعمدته الضخمة والمنحوتة من صخر واحـد وبـروعـة قاعاته فقد كان بمنزلة اعجوبة الأعاجيب، كما انه كان ايضاً هدفاً للحجاج من كل انحاء العالم.

كان معبدا بامبيكه وبعلبك مستقلين خاصين بالعالم الشرقي، ولم تجرؤ السلطة الرومانية ان تمس لا كيانهما ولا ثرواتهما. وبقيا مقدسين عريقين يقيم فيهما المؤمنون طقوسهم التي تمسك بها الشعب تمسكاً شديداً. وقد استطاعا ان يحافظا على مكانتهما دون ان يتدخل احد في شؤونهما إلاّ في حالات نادرة وذلـك بحـذر شديـد. وحتى القيـاصـرة كانوا يهتمون بهذين المعبدين ومنهم

---

٤ ـ كبدوقية: منطقة في شرق آسيا الصغرى.

«تراجان» (Trajan) (٩٨ ـ ١١٧م) الذي استخار نبوءة بعلبك ثم «أنطونيوس بيوس» (Antonius Pius) (١٣٨ ـ ١٦١م) و«كاركَلا» (Caracalla) (٢١١ ـ ٢١٧م) و«فيليب العربي» (Philippus Arabs) (٢٤٤ ـ ٢٤٩م) وكلهم وسعوا مباني هذين المعبدين.

كانت آلهة فينيقيا وآلهة المناطق الداخلية آلهة متعصبة تعصب التدين السامي. وجميعها كانت مسيطرة على وجود الناس كله ولو اختلفت أساليبها. فبينما كانت آلهة الساحل مرتبطة بتعاقب الازدهار والفناء، تحول طابعها في الداخل حيث استقرار الحياة الزراعية إلى الثبات والاستمرار. وكما كانت فصول السنة الثابتة توجه عمل الفلاح اليومي كذلك اصبحت صورة الآلهة تعبر عن المصير الثابت. لقد كانت إلهات فينيقيا تسيطر على حياة عبادها سيطرة المرأة التي توجه سلوكها قوانين الطبيعة، أما الأبعال في الداخل فقد كانوا يجلسون على عروشهم لتحديد المصائر حتى انهم تأثروا بالبابليين وتمادوا بمطالبهم إلى السلطة المطلقة. وبينما ارادت تلك الإلهات التي كانت تمثل قوى الحب والخصب ان تكون سيدات البشر وأمهاتهم، فان الأبعال قد اصبحوا حكاماً يسيطرون على الكون والحياة الخالدة، أي على المكان والزمان.

وجدت إلى جانب الآلهة الفينيقية وآلهة سورية الداخلية زمرة ثالثة. وكان موطنها أكثر شرقاً في منطقة حدود سورية المتاخمة للصحراء العربية. إلى هذه الزمرة كان ينتمي «جوبيتر الدمشقي» و«جوبيتر ـ دوليكينوس» (Dolichénus) الذي نشأ في مدينة «دوليكه» (Doliche) في شمال سورية بين آسيا الصغرى ونهر الفرات. وبالإضافة إلى هذين الهين نلتقي بالإله «دوساريس» (Dusares) وإله الشمس الحمصي اللذين نشآ في قلب شبه الجزيرة العربية.

تمتع «جوبيتر الدمشقي» هو الآخر بالإنعام القيصري. واذا كان

«أنطـونيـوس بيـوس» و«كـاركـلا» يعتنيـان بمعبـد بعلبـك فان «سبتيمـوس سيفـــيروس» (Septimus Severus) (١٩٣ - ٢١١م)و«أذينـــة» (تــوفي عام ٢٦٧م) سيـد مملكـة تدمر كانا يتوجهان باهتمامهما إلى إله دمشق، الذي امتد معبـده والسـوق الملحقـة به على ساحـة مربعـة الشكـل مع أروقـة تلاصقها الأبراج (تحـول هذا المعبـد فيما بعـد إلى الجامع الأموي الذي حافظ على تصميمـه بشكـل عام). يتفق اسلوب المعبـد المعمـاري مع التقليـد السوري الشرقي، حيث نرى هذا التصميم نفسه في اماكن اخرى مجاورة لدمشق.

أما الآثار التي بقيت من مقدس «جوبيتر - دوليكينوس» فأكثر تواضعاً. فالـدليل الوحيد على الموقع المقدس هو قبر دفن فيه شيخ مسلم وبركة تحتوي على سمـك مقـدس بالقـرب من القـريـة «سامكوي». ولكن في عبادة الإله على المرتفعات الجبلية وتربية السمك المقدس حفظ اهل مدينة دوليكه أقدم التقاليد. كان الإله يصور في زي فارسي يعود به إلى عصر ما زال بعيداً عن المؤثـرات الـرومـانيـة. والحق ان قرابتـه من إلـه الصـاعقة في آسيا الصغرى «تيشـوب»، الـذي عبـده الحثيون والحوريون واضحة كل الوضوح. ويمكن تتبع صورة الإله المتطي ثوراً وحزمة البرق في يده إلى الألف الثالث ق.م.

تقود الآثار التي تركها الإله «دوساريس» وإله الشمس الحمصي الذي أثر تأثيراً شديداً في تاريخ القرن الثالث الميلادي إلى ما وراء حدود سورية.

هيليوس الحمصي

من الوهلة الأولى يبدو ان هناك علاقة بين بعليم بعلبك وبعليم دمشق إذ يشـترك «جـوبيتر - هيليوبوليتانوس»[٥]. و«جوبيتر الدمشقي» في الاسم. وكان من الممكن ان يطرح السؤال عن امكانية المساواة بين الإله الحمصي و

---

٥ - هيليوبوليتانوس: نسبة إلى معبد بعلبك الذي سماه اليونان «هيليوبوليس».

«جوبيتر» . إلا انه سوف يتبين فيها بعد ان أمره يختلف عن غيره .

في بعلبك، جاءت متأخرة في سلسلة العبادات، عبادة الثالوث الإلهي المؤلف من «جـوبيـتر ـ حدد» و «فينوس ـ عترجاتيس» و «مركور ـ شَمَش» . ففي البـدايـة كان أعلى الآلهة إلـه الشمس أي «شَمَش»، ثم وتحت تأثير التصورات البابلية او الكلدانية (حسب التسمية الدارجة في الفترات المتأخرة من العصـور القـديمـة فقـط) ارتقى «حـدد» إلى المنزلة الأولى، وكان على «شمش» الـذي اصبـح فيـها بعـد على مستوى واحد مع «مركور» أن يكتفي بدور الخـادم لحدد، فاصبـح شبيـه الرسول الإلهي «هرمس» أو «مركور» تابعاً للإلـه الأعلى منفـذاً أوامـره . وكذلك في بانثيون تدمر كانت منزلة «هيليوس» إلـه الشمس دون منـزلـة «بـل» حيث كان يلعب دور الرسول والوسيط، بينما جلس «بـل» على عرش سيـد الكـون في السماء الأعلى . وقـد استمـد إلـه الشمس من منـزلتـه الثانوية هذه لقبه «ملكبل» أي رسول الإله «بل»، الذي عرف به في الثالوث الإلهي التدمري، ومرة اخرى على مستوى واحد مع «مركور» .

ومثـل البـابليـين كان أهـل حمص يؤمنون بالقدر وتوأمه التنجيم . لقد تلقت «جـوليـا» (Julia) التي اصبحت فيـها بعد زوجة الامبراطور «سبتيموس سيفـيروس» (١٩٣ ـ ٢١١م) نبـوءة مفـادهـا انهـا سوف تتـزوج من حاكم . كانت «جـوليـا» تنتسب إلى بيت الكهنـة الحمصي . وقـد ورد في الـروايـة الإيثيـوبيـة الـذي الفهـا «هيليودور» (وفيها الكثير عن التصورات التي كانت سائدة في حمص) ان مجرى النجوم هو الذي يحدد مصير الانسان الذي لا مفر منـه . وقـد كشفت الحفـريـات التي تمت في الشـمال الشـرقي من المـدينة عن لوحات عليها نصوص تنجيمية بالخط المسماري .

ولكن إلـه الشمس الحمصي لم يتخـل عن المـرتبـة الأولى كما فعـل «شَمَش» في بعلبك وتدمر. وتؤكد القطع النقدية والنقوش انه لم يتحول ابداً

إلى «جـوبيتر» أو «بعـل» أو «بـل» ، وانـما بقي إلـه الشمس. ان نقوشاً مثل (Deus Sol Elegabalus) (أي إلـه الشمس إلـه إيـلاجبـال) أو Invictus Sol) Elagabalus) (إلـه الشمس الـذي لا يقهر إله إيلاجبال) لا تترك مجالاً للشك في ذلـك ثم يستنتـج من نقش عثـر عليه في مدينة قرطبة أن «هيليوس الكبير» الحمصي كان على مستوى واحد مع إله الشمس «رع» المصري. فضلاً عن ذلك كانوا يدعونه «الأب الأول»، كما ان الكثير من اسماء اهل حمص القدماء يدل على انتسابهم إلى الشمس او «الإله» بشكله المطلق [٦].

وارتبط الإله الثاني «دوساريس» هو الآخر بالشمس. كان «دوساريس» الإله الـــرئيسي عنـد الأنبـاط، ويمكن العثـور عليـه حيثـما وصلت اليـه قوافلهم التجـارية وامتدت منطقة نفوذهم. ومثل كل آلهة الشمس كان لـ«دوساريس» لقب «الـذي لا يقهـر». كانت هنـاك رابطة بينه وبين «ميترا»، واحتفل بعيد ميلاده في ٢٥ كانون الأول. ومثل سيد حمص الإلهي كان يملك حجراً مقدساً.

عرف هذا النـوع من العبـادة عنـد إلـه القمـر في مدينـة «كارهاي» [٧] (Karrhai) وعند الآلهة العربية الأصل على العموم. ونفهـم من الكلمة «بات إيلوي»، التي سـميت بها هذه الأحجار المقدسة، انها كانت بيوتاً للآلهة المعنية وليست الآلهة نفسها. وفي مدينة حمص كان الحجر المقدس مخروطي الشكل مدبب الـرأس واقفـاً على قاعـدة مستديرة، وعليه نقش بارز لصورة نسر وفي منقـاره حيـة، وهي صورة معروفة كرمز للشمس. ومعنى ذلك ان هذا الحجر ايضـاً لم يمثـل الشمس بل حمل صورتهـا فقـط. ومع ذلك فقد اتحد الإله مع

---

٦ ـ وهناك ظاهرة ملفتة للنظر في أسماء الأعلام في حمص الحديثة، وهي كثرة الأسماء المركبة المؤلفة من العنصر «عبد» مضافاً إلى احد اسماء الله الحسنى. ونكاد لا نجد اسماً من أسماء الله التسع والتسعين لم يدخل في اسماء الأعلام ـ المراجع ـ.

٧ ـ كارهاي: حرّان، مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرين. (المترجمة).

الحجر الذي كان يلازمه نوعاً ما، كما هو الحال في عدد كبير من الأحجار التي كانت موضع العبادة عند العرب في الجاهلية، والتي نسمع عادة اخبارها بمناسبة هدمها على يد المسلمين المتعصبين لدينهم. كانت الكهنة يحثون آلهتهم العربية القديمة على الدفاع عن احجارها في وجه ممثلي الدين الجديد، لأنها كانت تخسر طقوسها وسمعتها اذا ما فشلت في حماية حجرها باعتباره بيتها. ان إلهاً لا يدافع عن حجره يصبح «شيئاً لاقيمة له»..

قال محمد رسول الله المنتصر بعد هزيمة «العزى» في معركة شبيهة ـ لم تدُر عند احجار مقدسة وانما عند اشجار الإلهة الثلاث ـ: «ان العزى لن تعبد بعد اليوم».

ان الأحجار ليست ملتصقة بمكان معين لأنه يمكن تحريكها. لذا كان تبني الآلهة يتم بواسطة احجارها التي جاءت هدية او نقلت من عبدها. ولما انتقل طقس إله الشمس إلى روما رافقه إلى ضفة نهر التيبر حجر مدينة حمص المقدس. أما بعد اغتيال «ايلاجبال» (٢٢٢م) عندما اراد الرومان التخلص من هذا الطقس الغريب فقد اعيد الحجر إلى وطنه سورية.

عرف إلى جانب عبادة الحجر شكل آخر من العبادة وهو ممارسة الطقوس على المرتفعات. وقد اطلق اسم «إيلاجبال» أول الأمر على الإله نفسه مشيراً إليه كربّ الجبل، الذي كان بالتحديد جبل حمص الذي شيدت عليه القلعة والذي كان مقر الإله. ترتفع القلعة في الجنوب الغربي من السهول الذي تمتد فيه مدينة حمص حيث تواجه مباشرة منحدرات جبل لبنان الشمالية. وهنا وجد المعبد الذي كانت قمته تتحدى مرتفعات الجبل المغطاة بالأشجار على حسب قول موثق من العصر الكلاسيكي.

وبالنسبة الى هذا الأمر يمكننا مرة أخرى أن نقارن مع «دوساريس». ففي الجنوب الشرقي من البحر الميت وعلى ابواب شبه الجزيرة العربية تقع مدينة «بترا». وكانت بترا عاصمة الأنباط (وهم شعب كان يكتب بلهجة آرامية

مستعارة، غير ان اسماءهم تدل على انهم من اصل عربي) وسط واد عميق بين الجدران الهابطة لكتلة صخرية ضخمة تتراوح ألوانها بين الحمرة والبنفسجي، فتبدو مدينة بترا بعيدة عن العالم المحيط بها، والمدخل الوحيد اليها سرير نهر صخري شق مجراه في عمق شديد بين الجدران الصخرية. يبدو هذا المكان الأمين بفضل بعده عن العالم وسحره مكاناً ملائماً ليحس فيه الإنسان بقرب الإله. وبين العدد الكبير من القبور والمغاور والمعابد، يترك المكان الخاص بتقديم القرابين والمحفور في صخور القمة اثراً عميقاً في النفس. هناك المحراب والمذبح ثم الحوض العميق الذي كان يسيل فيه دم القربان الحيواني وقريباً منه صخران مقدسان، كل ذلك يعطي فكرة عما كانت عليه الطقوس السامية التي أقيمت على المرتفعات.

ليس من باب الصدفة ان الأمثلة مستمدة من العالم العربي الذي ينتمي اليه، كما قدمنا، الأنباط وسيدهم الإلهي، والذي سوف يقودنا إليه الإله الحمصي ايضاً.

إله عربي

منذ الأيام التي قام بها «بومبي» (Pomejus) (٦٢ - ٦٦م) بغزواته في الشرق كان الحكم في حمص بأيدي أسرة سميت أولقبت ب «سَمْسيجراموس» (Sampsigeramos) أو« سمسيكيرامِوس» (Sampsikeramos) أو ما شابه ذلك. ان ضريح احد هؤلاء الملوك الكهنة معروف، ومنذ وقت قصير أضيف إليه قطعة أثرية عثر عليها قرب مدينة حمص الحديثة. ويجوز ان تكون تلك الخوذة الحديدية المزودة بقناع فضي مصنوع بمهارة من ممتلكات احد اولئك الرجال؛ تشير إلى ذلك ايضاً وردة الشمس المثبتة على الجبين.

كانت الأسـرة الحـاكمـة في حمص من أصـل عربي . ان هذا ما يؤكده اللقب «سمسيكـيرامـوس» (الـدال على إله الشمس) وكذلك أسماء الحكام مثـل «يـامبليخـوس» (Jamblichos) و «عـزيـزوس» (Azizos) و «سويموس» (Soaimos) . ولا يختلف الأمـر في الحقبـة المتأخرة التي تخبرنـا عن «ميسـا» (Maesa) و«مميا» (Mamaea) و «سـوايميـاس» (Soaemias) . في هذه الأسر انتقل منصب الكاهن من جيل إلى جيل بالوراثة كما جرت العادة عند القبائل البدوية . وقد يؤكد ايضاً ما ذهبنا إليه وجوب ختان الكاهن الأعلى والامتناع عن أكل لحم الخنزير.

لقـد بقي اصـل إلـه الشمس العـربي ظاهـرة انفردت بها حمص، لأن عبـادة الشمس كانت عنـد البـدو قليلة الأهميـة بالنسبـة إلى غيرهـا من العبـادات . في منطقـة الصفا الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة دمشق عثر على نقـوش للبـدو العـرب عليهـا اسم «شمس» دلالة على إلهة، وفي بعض الأحيان ايضاً على إله . أما في أغلب الأحيان فقد تخلت القبائل المتنقلة عن إلهها الخـاص بها لصالح الإله المعبود عند المستقرين . هذا مافعله سكان بادية الصفا الذين تبنو الإله «دوساريس» . وعلى كل حال نستطيع ان نذكر بوجود إله شمسي في تدمر، ولا يستبعد ان مدينة حمص تأثرت بعبادة الإله التدمري .

ومما يجعـل مرجـع عبـادة حمص إلى بلاد العرب معقولاً ، هو ارتباطها بآلهة اخرى. نقرأ مثلاً في النقش المذكور اعلاه الذي عثر عليه في قرطبة إلى جانـب «هيليـوس إلـه إيـلاجبـال الحمصي العظيم» كلا من الاسمـين «أفـروديت» و «أثينـا» . وتـرتسم وراء الأولى إلهـة قمرية ذات اصل عربي ، ويحتمل ان تكون ربّة الزهرة «العزّى» بالذات التي تنتسب إلى الأصل نفسه . أمـا «أثينـا» فقـد ساوى هذا النقش بينها وبين «اللات» العربية التي انتشرت عبـادتهـا بصفتها «ام الآلهة كلها» في المناطق التي كان سكانها يتكلمون باللغة

العربية وصولاً إلى تدمر؛ وهنا وهناك كانت تعبد هي و «العزى» معاً. وكانت الطائف القريبة من مكة منطقتها المقدسة التي لم يسمح فيها بقطع الأشجار والصيد. وهناك وجد ايضاً الحجر المقدس الذي حفظ في جوفه على كنز الإلهة. ان الرحالة في بلاد العرب «ش. م. دوتي»[8] (Ch.M. Doughty) نفسه عرض عليه في هذه المدينة التي عانى فيها ما عانى حجراً ارتبط باسم «اللات». ولنا من الشواهد ما يؤكد انها كانت معروفة في حوران ومدينة تدمر والمناطق المجاورة لها. وفي حمص نفسها وجدت صورة لها، عليها رداء طويل وبيدها الصولجان.

في كل مكان كان عالم الآلهة البدوية يمتد إلى مناطق الحدود السورية. وتقدم النقوش التي عثر عليها في حوران صورة البانثيون هذا. انه لم يحتو على «شمس» و «العزى» و «اللات» فحسب بل كذلك ورد ذكر اسم «الله» ـ من عصر الجاهلية ـ الذي كان رفيق الإلهة الأخيرة. وقد ظهر الاثنان مجتمعين في مدينة «هترا»[9] في بلاد ما بين النهرين[10].

وهناك نقش بارز على سقف معبد «بل» في تدمر، عليه صورة موكب غريب يتألف من جمل يحمل هودجاً مغطىً بالحجاب، وتتبعه نساء وفتيات محجبات بدورهن. وأمام الجمل يمشي رجل وظهره إلى الأمام رافعاً الحبل الذي يقود به الحيوان فوق رأسه. أما على رأس الموكب فنرى حيواناً خالياً من

---

٨ ـ شارلس مونتاغ دوتي: ١٨٤٣ ـ ١٩٢٦م، اشتهر بمؤلفه «أسفار إلى بلاد العرب الصحراوية» الذي أصدر عام ١٨٨٨م.

٩ ـ هترا: الاسم اليوناني لمدينة «الحضر» القديمة بين دجلة والفرات.

١٠ ـ وفي الحقيقة لا يتعارض وجود اسم الجلالة لدى القبائل العربية قبل الاسلام، مع المعلومات التي امدنابها القرآن الكريم عن معتقدات الجاهليين، فالجاهليون كانوا يعرفون الله ولكنهم يشركون به آلهة اخرى. وخير شاهد على ذلك ما نقرأه في الآية الكريمة: «وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» الزمر ـ ٣، المراجع.

العدة، ولا نحسم أحمار هو أم بغل. ولكن تفصيلات هذه الصورة لها أهميتها. وقد ذكر الشاعر امرؤ القيس في بيت شعر له[11] تلك الفتيات المحجبات وهن يتحلقن حول التمثال الإلهي. وفي اثناء المعركة ولا سيما قبيل المعركة الفاصلة كانت احدى الفتيات تحل محل التمثال جالسة في الهودج على ظهر الجمل. وكانت نساء القبيلة المتجمعات حوله يقدنه شعاراً حياً إلى المعركة. ثم قامت الفتاة بتحريض المحاربين بالأغاني والحركات والهجاء وفي حالة الضرورة خلعت ثيابها وهي على قمة النشوة. وما أشد العار ان يترك الجمل والفتاة في ايديّ العدو.

وقد يحل محل الفتاة على ظهر الجمل مقدس من مقدسات القبيلة ـ صنم أو حجر مقدس تغطيه قبة الخيمة أو الأقمشة النفيسة. في هذه الحالة أيضاً تتبعه نساء القبيلة لتشجيع المحاربين بالأغاني على ايقاع الدفوف والصنوج. وهناك أخبار إنهن ايضاً كن يخلعن عن ثيابهن قبل المعركة الفاصلة، كما تتحدث عن تحمسيهن المقاتلين بالحركات والأشعار[12].

---

١١ ـ يقول الشاعر في هذا البيت:

فعنّ لنا سرب كأن نِعاجَه
عذارى دُوارٍ في المُلاء المذيَّلِ

١٢ ـ يذكر «كارل الرضوان» وهو ضابط الماني عاش مدة طويلة مع القبائل العربية بين شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام الحادثة التارية التي وقعت أثناء تقدم قبيلة الرولة في البادية السورية في مناطق معادية لهم: «عندما وصلت تويا إلى الجمل الذي يحمل الرمز القبلي امسكت بحزام كتف الجمل وصعدت بخفة إلى ظهره، ثم خلعت غطاء رأسها وتساقطت ضفائرها الرائعة فوق كتفيها. ثم انتصبت وانتضت خنجرها ومزقت ثوبها وانطلقت في اغنية بهيجة، وارتفعت وصدرها عار تماماً مجهدة جسمها المدن حتى توازنت فوق المركب رافعة باقة من ريش النعام الأبيض. القت على مسامع الشباب كلمات بليغة فالهبتهم بحماسها الحربي. وسرعان ما انطلق الفرسان الى الأمام من كل الاتجاهات»، كارل الرضوان، الخيام السود، دار قتيبة دمشق ص ١١٠ ـ ١١١.

وكانت حتى الإلهات مستعدات للقيام بهذا الدور. حدث ان مبعوثاً[١٣] من الرسول اخذ يقطع الأشجار الثلاث المقدسة للإلهة «العزى». ولما قد قطع اثنتين خرجت صاحبتها بالذات لتواجه الهادم وهي في حالة الانفعال الشديد. ونصحها سادنها قائلاً: «شدي شدة لا تكذبي، ألقي عليه الخمار وشمري!» فخلعت عنها ثيابها مدافعة عن ممتلكاتها كما فعلت النساء البشر في المعركة الفاصلة.

كانت هذه العادة معروفة في حمص ايضاً. أما نساء أسرة الكهنة الحمصية اللواتي قد تركن الجمل والهودج ليركبن العربات فسوف ينزلن منها في المعركة الحاسمة، وسوف يدفعن بكلماتهن وعويلهن الجنود إلى الصمود. ويظهر من جديد هذا الحماس النشوان الذي يجشعهم على اعادة الهجوم وتحقيق النصر. وبفضل طريقة التدخل الخاصة هذه تحسم المعركة.

وسوف يكون لنا لقاء آخر مع موكب الحجر المقدس الذي يتم نقله على العربة بدلاً من الجمل. ولكن كما ينظر القائد المصور على النقش التدمري إلى الجمل المقدس وزمام الحيوان في يديه، كذلك سيسير كبير الكهنة لإله الشمس أمام العربة المحمولة بالحجر المقدس، واضعاً قدميه إلى الوراء يمسك بزمام الخيل وعيناه مركزتان على الإله.

ان الحيوانات التي تجدر بأن تحمل أو تجر الإله، تعرف طريقها بنفسها. ويصح ذلك على الخيول التي تجر العربة المحملة بالحجر المقدس وعلى الجمل الذي يحمل الصنم المغطى على حد سواء. ويعبر عن الفكرة نفسها الحمار والبغل الذي يسير امام الجمل ومرافقه المصورين على النقش التدمري. عندما تحرك الموكب البابوي عام ١٨٠٤م بمناسبة تتويج نابوليون في شوارع مدينة باريس باتجاه كاتدرائية نوتردام اثار بغل لا فارس عليه، على رأس الموكب، تهكم السكان.. انه كان صدى اخيراً لهذا المعتقد.

---

١٣ ـ خالد بن الوليد.

الوضع التاريخي

سبق ان عربياً كان يبشر بإله الشمس، وكان ذلك «ايامبولوس» (Jambulos) النبطي، الذي ألف في ثمانينيات القرن الثاني قبل الميلاد روايته الخيالية عن نظام اجتماعي جديد. في ذلك المجتمع كانت كل الأمور منظمة على الوجه الأكمل وبشكل طبيعي وخاصة الملكية المشتركة والمشاعية الجنسية، ويخضع البشر كلهم لسيادة «هيليوس» السماوية. وقد حاول عبيد صقلية الثائرون بقيادة «أونوس»[١٤] (Eunus)، وأتباع «أرستونيكوس»[١٥] (Aristonikus) في برغاما (آسيا الصغرى) مرتين تحقيق هذه الدولة الشمسية، غير ان الثورتين تحطمتا في قبضة روما الشديدة. أما إله الشمس فظهر مرة اخرى في سورية مطالباً بحقه.

لم تكن المسألة هذه المرة تحقيق برنامج اجتماعي ناهيك عن برنامج خيالي، فبخلاف ذلك النبطي المثقف أدبياً وفلسفياً، احتفظ المبشرون الجدد بالأصول. لقد ارتبط إله الشمس الحمصي وكهنته ذوي المنشأ العربي ارتباطاً وثيقاً بالتصورات الدينية الوثنية السائدة في العصر الجاهلي، حيث نجد جماعة العباد ومسكن الإله عند الحجر المقدس، وكذلك الارتباط بالمنزل والأرض

١٤ ـ أونوس: عبد سوري الأصل كان قائد حرب العبيد الأولى (١٣٢ ـ ١٣٥ ق.م). فنادى به اتباعه ملكاً.

١٥ ـ أرستونيكوس: دارت الحرب بين روما وأرستونيكوس في برغاما بين عامي ١٢٩ - ١٣٢ق.م.

والقبيلة، فكـل هذه العنـاصر تتعلق بهذه المرحلة من التطور، وحمص بدورها كانت قد احتفظت ببعض منها. ومعنى ذلك انه ليس الانفصال بين الأرض والإنسان هو الشرط لظهور هذا الإله بل على العكس الارتباط بينهما.

لم يكتب تاريخ بلاد العرب قبـل الإسـلام بعد، ولكنه من المؤكد ان يكـون للدين في مثـل هذا العـرض دور كبـير. لقد انصب حتى الآن معظم الاهتمام على القـرن السـابق لظهـور محمد، ولم يكن الالتفات إلى العصور الأقـدم إلا من باب الصـدفة ماعدا فيما يخص المنطقة العربية الجنوبية)، رغم انها لا تقل اهمية عن العصر الإسلامي والقرون القليلة السابقة له.

يتميـز القـرن الثـالث الميـلادي بشكل خاص بازدهار العروبة ازدهاراً يدعو إلى الدهشة. فقد اخذت تتنامى دول عربية مثل الحضر والحيرة وتدمر التي جرؤ ت ان تلعب دوراً مستقلاً بين الدولتين العظميين روما والساسانيين. ولا ينتقص من أهميـة تلك الـدول انهـا اتت قبـل الأوان، اذ ان دولتين اثنتين منهـا انتهتـا إلى الضيـاع. فالـواقـع ان العـرب اخـذوا بالـترقي داخـل الامـبراطـوريـة الرومانية نفسها، هكذا وصل الرماة ـ مشاة وفرساناً ـ الذين اتـوا من مناطق الحدود السورية، وكانوا من اصل بدوي اوشبه بدوي، إلى رتـب عاليـة في الجيش الـرومـاني، وكـانت كتـائبهم متمـركزة عند كل الحدود تقريباً حتى اننا لنجد معسكرات كتائب قادمة من المدن السورية أمثال حمص وخالكيس (أي قنسرين) ودمشق وتدمر عند السد النوميدي المنيع[١٦]. كذلك هاجرت قبائل عربية إلى مصر حيث شكلت إقليماً خاصاً بها. هذا بالاضافة فتـح الجيش التـدمـري لوادي النيـل (٢٦٨ ـ ٢٧١م)، الذي يمكن اعتباره تمهيـداً لما حققـه الخلفاء الراشدون بعد حوالي اربعة قرون. وعندما شيد أمير

---

١٦ ـ السـد المنيـع الـذي أقامه الرومان عند حدود نوميديا وهي بلاد في إفريقيا الشمالية بين قرطاجة والجزائر جعلها الرومان منطقة عسكرية ومقاطعة امبراطورية ٢٥ق.م. (المترجمة).

عربي في شرق الأردن بالقرب من الحدود الرومانية قصر المُشَتّى فقد سبق بتصميمه وزخارفه ما كمّله الأمويون فيها بعد بمبانيهم الضخمة في هذا البلد[١٧].

أما الذي يفوق هذا كله فهو ان رجالاً يجري في عروقهم دم عربي قد ارتقوا في هذا القرن عرش القيصر الروماني، كانوا ينتسبون إلى أسرة الكهنة الحمصية. وبعد سقوط هذه الأسرة نال عربي آخر وهو «فيليب العربي» ابن شيخ بدوي من حوران (٢٤٤ ـ ٢٤٩م) المكانة العليا..

---

١٧ ـ يقع قصر المشتى على مسافة أربعين كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة عمان الحالية. ويعتبره الباحثون أحد الأمثلة البارزة على العمارة الشرقية التي أثرت في العمارة البيزنطية نفسها.

الفصل الثاني

إيلاجبال

تم ارتقاء العنصر العربي ـ على الرغم من فتوته وعنفوانه الثوري في بعض الأحيان ـ ضمن الاطار الموجود الذي أعطته تلك الامبراطورية التي ضمت الحضارة الكلاسيكية الموروثة، وحافظت عليها لعدد من القرون الأخرى. والواقع ان الميراث الذي انتقل إلى روما كان ينطوي على العظيم والمحدود وعلى الخالد والآيل إلى الفناء، فتنامت روما في مجتمعات ربطتها وحدة المصير، بما جرت عليها عواقب لم تكن مسؤولة عنها وأعباء لم تسببها.

ومن بين الهموم التي انتقلت إلى روما عن طريق الميراث الهيلينستي هجوم الشرق الناهض سياسياً ودينياً.

بدا من فتوحات الاسكندر المقدوني (٣٣٦ ـ ٣٢٣ق. م)، ان حكمة الشرق تتمرغ في التراب أمام العقل الاغريقي. وفي الحقيقة، فإنه طالما تمكنت السلطة الأجنبية من السيطرة على المهزومين نظر هؤلاء مندهشين إلى الجديد المستعصي على الفهم، وتحملوا متذمرين ذلك التفوق الذي كانوا لا يملكون ما يعارضونه به اول الأمر. ولم يحدث رد العدوان إلا بعد زوال الدهشة، ويبلغ اوجه في اقل من ثلاثة اجيال بعد وفاة الفاتح، عندما وجه الشرق رد فعل عنيف إلى المنتصر في الأمس الذي لم يعد يظهر ذلك العدو اللدود الذي لا غالب له. ثم تجاوز هذا التحدي الفاتح المقدوني الكبير وخلفاءه متجهاً إلى السلطة اللاحقة التي هي روما.

كان ذلك نضالاً بين قارتين وحضارتين، وبطبيعة الحال بين الآلهة التي

بثت نبوءاتها التي انعكست عليها الأحداث التاريخية العالمية كما في المرآة. وكانت الشعارات المرفوعة تنص على السيطرة على آسيا أو أوربا وعلى غزو الشرق او الغرب للمحافظة على الذات او الانتقام. ثم اشارت النبوءات إلى يوم حساب يجلب على المقدونيين او الرومان العقاب المستحق منذ زمن طويل ألا وهو إبادتهم. ولكن لم يكن حب الانتقام وحده الذي اجتاح البلاد ولا الحقد القديم الذي كانت تكنه آسيا للقارة الغربية، الأصغر مساحة والأكبر نجاحاً. كلاّ، لم يكن العقاب الهدف الوحيد بل توجه التفكير علاوة على ذلك الى الاستفادة؛ أي لم تكن الرغبة في التخريب أكبر من الرغبة في التغيير والاستملاك، حيث تأهبت آلهة الشرق لتنتزع من قلوب الغربيين ما كان حتى الآن ملك سادة الأوليمب (مقر آلهة اليونان) أو الكابيتول (مقر آلهة روما) وما لبثت ان تدفقت في موكب بدا لا متناهياً إلى مجالات كانت مغلقة بالنسبة لها من قبل.

ظهور الآلهة الشرقية في روما

بدأت انتصارات الآلهة الشرقية وطقوسُها في روما في اواخر القرن الثالث الميلادي. تقدمت أول الأمر بشيء من التردد ثم تدفقت على العالم الغريب بسرعة أكبر فأكبر حتى غطت، أخيراً على ديانة روما الموروثة. . على الأقل هكذا كانت الصورة المألوفة، إلا أنها تحتاج إلى بعض التعديلات.

كثيراً ما استطاع الطبع الروماني مقاومة هذا الهجوم، اذ لم يقبل طقوس الآلهة المستوردة إلا بعد اسقاط الكثير من متعلقاتها، حتى اننا نلاحظ تراجعاً واضحاً في حركة الديانات الشرقية. وسوف نرى ان الشكل الروماني نجح في المحافظة إلى القرن الثالث الميلادي.

علاوة على ذلـك لم تكن تلك الانتصـارات ناتجـة عن حركة موحدة، لأن مصـر وآسيـا الصغـرى وسورية وإيران وبلاد ما بين النهرين كانت بلداناً مختلفـة المـلامـح والشعوب. وكما اختلفت البلدان والشعوب كذلك اختلفت الآلهـة التي كانت، فضـلاً عن ذلـك، تتبادل فيما بينها مكان الصدارة. ومهما كان من أمر فإنها تقدمت على كل حال في سلسلة متصلة.

في القـرنين الأولين من العصر القيصري كانت آلهة مصر وآسيا الصغرى الآلهـــة الســائـدة. وفي هذه المرحلة احتلت «إيـزيس» و«سـيرابيس»[1] ثم «سيبيـل» مكـان الصـدارة، وشيدت لهذه الآلهة معابد في مدينة روما ونقشت صورهـا على القطـع النقـديـة. وممـا يلفت النظر ان عشيقي الإلهتين بقيا في الخـلف اذ لا نلتـقـي بـ«اتيس»، حبيـب «سـيـبـيـل»، إلاّ نادراً وأمـا «أوزيريس»، حبيب «إيزيس»، فلا نجد له اثراً على الاطلاق. وفي الحالتين يتجلى المـوقف المحـافـظ الذي يدل على عدم وجود علاقات غرامية بين آلهة الـديـانـة الرومانية منذ القدم، فكان لا بد من تعديلات الطقوس الغريبة في جوهرها قبل القبول بها. ان هذه الصورة لم تتغير إلا نحو أواخر القرن الثاني الميلادي.

والحـق ان الآلهـــة المصـــريـــة ازدادت أول الأمـــر اهميـــة تحت حكم السيفيريين ويدا انها وصلت إلى ذروة قوتها.

بدأ «سبتيمـــوس سيفـير وس» (Septimus Severus) (١٩٣ - ٢١١م) يهتم بـ «سيرابيس»، الذي تأثر به تأثراً عميقاً عندما زار مصر، حيث دخل في الاسكندرية معبد الإله المشهور عبر الحدود. وجرؤ على ما لم يسبقه إليه أحد عنـدمـا امـر بصنـع تمثال لنفسه على صورة الإله. ثم اقتدى «كاراكلاّ» بأبيه فجعـل هو الآخـر «سـيرابيس» مركـز دينه. كان «كاراكلاّ» في معبد الإله بينما

---

١ - سيرابيس: هو صورة هلينية لِلِه المصري «أوزيريس».

استباح مدينة الاسكندرية لجنوده. وفضلاً عن ذلك وهب لـ «سيرابيس» سيفه الذي كان قد قتل به أخاه «جيتا» (Geta). في روما أقيم للإله «سيرابيس» على الكويرنال[٢] معبد كان يفوق كل شيء روعة. وهناك نقش يشير إلى «كاراكلا» بلقب «فيلوسرابيس» (Philosarapis)، أي محب سيرابيس، ونقش آخر عليه كتابة تنص على ان «زيوس سيرابيس هيليوس هو الإله الأوحد» وهو «سيد العوالم الذي لا يقهر».

ان هذا كله على ما يبدو تطوير لما كان يتميز به قرنا العصر القيصري الأولان. ومع ذلك فان هناك شيئاً جديداً.

فقد جعل «سبتيموس سيفيروس» إلى جانب «سيرابيس» إلهين إفريقيين من الآلهة الرئيسة هما «هِرَقل» و«ديونيسوس» اللذان أتى بهما من مسقط رأسه، مدينة «لبسيس ماغنا» (Lepcis Magna)، إلى روما. وفي الحقيقة كان الاسمان اليونانيان شكلين جديدين لعبادتين فينيقيتين، غير انهما خلال بضعة قرون من العبادة في المستعمرة الفينيقية عند خليج «سرت» (ليبية) قد اصطبغتا بصبغة القارة الإفريقية. وبعد اثباتهما من جهة القيصر انتشرت عبادتهما بين الناس.

ثم جاءت على اثر هذين الإلهين الإفريقيين إلهة أخرى هي الإلهة «جونو كيلستيس» (Juno Caclestis) سيدة مدينة قرطاجة. ان «سيرابيس» أيضاً كان افريقي المنشأ وكذلك القيصر نفسه، وكما رأينا، فقد جعل القيصر يصور نفسه على صورة الإله الإفريقي. وبذلك فقد حصل تحول على الرغم من التشابه الظاهري مع القرن السابق له. فحتى الآن استطاع كل من «إيزيس» و«سيرابيس» على الرغم من أصلهما المصري أن يدّعيا الشمولية، فكانت «إيزيس» تتطابق مع كل إلهات الديانات اليونانية والشرقية تقريباً. انها كانت الإلهة ذات عشرات الآلاف من الأسماء، و«الإلهة الواحدة التي

---

٢ ـ الكويرنال: احد تلال روما السبع.

كانت تمثل الكل». و«سيرابيس» بدوره كان «زيوس وهيليوس وديونيسوس» وكانـــوا يدعـونـه «بـانثيـوس» (Pantheus)، أي كل الآلهة. أمـا في عهـد «سبتيمـوس سيفـيروس» فقـد اتضـح ان في عبـادة «سـيرابيس» تعبـيراً عن النسب الافـريقي، وعنـدئـذ تحول من إلـه شامـل إلى إلـه يمثل قارة وشعباً خاصـين. وكـان لا بد لهذا المبدأ الجديد بعد إثباته أن يؤدي إلى نتائج بعيدة المدى ولا سيما بالنسبة للآلهة المصرية نفسها.

احتفـظ «سـيرابيس» بمكـانتـه في عهد «كاراكلاّ» (٢١١ - ٢١٧م كما اشرنا اليه، ولكن كما كان نسب «كاراكلاّ» اكثر تعقيداً من نسب أبيه، كذلك كانت جماعة الآلهة التي كان يفضلها.

قال أحد معاصري القيصر ان ثلاثة بلدان قد اسهمت في تكوين خلق القيصر. فقد ورث من بلاد الغال التي ولد فيها الطيشَ والجبنَ والتهور، ومن أبيه الإفـريقي الخشـونـة والعنف، بينـما دان لأمه بذلك الدهاء الذي تميز به الشعب السـوري. ولعلنـا واجدون هذا التركيب الثلاثي في ميول «كاركلاّ» الـدينيـة، فإلى جانب «سيـاربيس» كان يعبـد الإلـه «غرانوس» (Grannus) السيلتي الـذي كان متسـاوياً مع «أبولو». ثم بدأ إله الشمس السوري يرسل أشعتـه الأولى، فكـان لـ «كـاركلا» لقب الشمس نفسها: «الذي لا يقهر»، وفي موضـع آخـر يسمى صراحة «ملك الشمس الذي لا يقهر». وهكذا نرى على نقـوشـه الهـالة المشرقة والأسد الذي هو رمز الشمس وصورة القيصر وهو يرفع يده اليمنى مشيراً إلى الشمس.

لم تبلغ الآلهـة المصـريـة بعـد ذروة نفوذها حتى أعلنت الآلهة السورية مجيئهـا. واذا استطـاع «سبتيمـوس سيفيروس» بصفته مواطناً إفريقياً ان يبرز «سـيرابيس»، فان «كـاراكـلاّ» حذا حذوه فيـما يخص إلـه الشمس السـوري اعتـماداً على دم أمـــه. ولم تمض عشـر سنـوات حتى أقـدم هذا الإلـه على استلاب عرش الامبراطورية السماوي.

ترقي إيلاجبال

في عهد «كاركلاّ» لم يكن لإله الشمس اسم يدل على منشئه، وكل ما عرف عنه انه جاء من سورية دون تعيين المدينة. غير ان احداً لم يشك في كونه إلـه الشمس الحمصي، لأن زوجـة «سبتيمـوس سيفـير وس» وأم «كـاركلاّ» كانت حمصية الأصل وانتسبت إلى أسرة الكهنة الحمصية.

كان «سبتيموس سيفير وس» منذ شبابه مولعاً بالتنجيم، وقد تنبأ له في وقت مبكر أحد المنجمين بمستقبل كبير، ولذلك بحث الرجل المختار لمكانة القيصـر عن زوجـة ولـدت في ظروف متشـابهـة. ووجـدها فعلاً في شخصية «جوليا دومنا» (Julia Domna) التي يعبر لقبها وحده عن شخصية ملهوفة إلى السيـادة. وبينـما نشأ هو في مستعمرة فينيقية في شمال افريقيا كان منشأ «جوليا دومنا» سورية موطن الفينيقيين، الذين كانوا قد هاجروا في عصور سابقة نحو الغـرب. وبـذلـك يمكن اعتبـار زواج «سبتيمـوس سيفير وس»، نوعاً ما، عودة إلى جذور قومه.

ومن الطبيعي انه في زواج عقد في شروط كهذه كان للزوجة وزنها منذ البـدايـة. ان «جـوليـا» لم تكن مجرد زوجـة القيصـر وانها ارادت ان تكون هي نفسها سيدة. ترينا التماثيل النصفية والقطع النقدية رأسها العظيم والمكتنز ذا الملامـح الـواضحـة والأنف المعقوف والمتميز بشفتين ممتلئتين شهوانيتين فوق ذقن قوية. قيل ان جمالها لا يفوق إلا فجورها. على الرغم من ذلك تحملها القيصر بجواره وكـان سلطانها عليه كبيراً. تصورها القطع النقدية الشرقية في

رداء رسمي كان يرتـديـه كبـار موظفي الحكـومة فقط. أما لقبها «أم الجيوش» فيدل على صلتها المباشرة بالقوات المسلحة مما جعلها الخليفة الشرعية لزوجة «مارك أوريل» (Marc Aurel) (١٦١ - ١٨٠م) التي كان لها اللقب نفسه.

اصطحبت «جـوليـا دومنا» أقاربها الحمصيين إلى البلاط وعلى رأسهم اختهـا «جـوليـا ميسـا» (Julia Maesa). وبطبيعـة الحـال وقف «سبتيمـوس سيفـيروس» مانعـاً في وجـه خطـر نشـوء فرع قيصـري، ولـذا تم زواج ابنتي «ميسـا» من سوريـين منتميـين إلى طبقـة الفـرسـان بدلاً من اعضـاء مجلس الشيوخ. ومع ذلك تبوّأ زوج ابنتها الكبرى «سوايمياس» (Soaemias) أعلى المـراتب حتى أصبـح في عهـد «كـاراكـلا»، الـذي بـدأ فيـه عصر الفرسان الـذهبي، نائب الحكـومة لأعلى منصبين. لقد عوّض الرجلان افتقارهما إلى المكانة الاجتماعية بصلة القرابة بينهما وبين أسرة القيصر.

كانت «ميسـا» وقتـاً طويلاً في البلاط بصفتها أخت زوجة القيصر دون ان تظهـر بصـورة رسميـة. غير انهـا استغلت مكـانتهـا لتكـوّن ثروة. وكـان صهرها، زوج «سوايمياس»، أغلب أيامه يعمل في الادارة المالية، حيث كان مسئولاً عن تدبير أجور الجنود التي كان «كاراكلا» قد رفعها بنسبة عالية، وهو أول من جاهر برواتبه إلى جانب ألقابه. ومن هنا نحس بالطريقة التي تكوّنت بها ثروة «ميسـا».

ولكن فجأة حدث التحول، وذلك باغتيـال «كاركلّا» (٢١٧م) وارتقاء رجل جديد وهو «ماكران» (Macrinus) عرش القيصر (٢١٧/٢١٨م). بقيت «جـوليـا دومنـا» مكـرمـة مشـرفة غير ان حياتها فقدت معناها فتوفيت في فترة قصيرة بعد موت ابنها. أما «ميسا» فطردت من روما بأمر من الحاكم الجديد. لذا عادت إلى وطنها حمص ومعها ثروتها الضخمة. انها كانت تعلم ان دورها لم ينته بعد. وبالفعل تمكنت ـ مثل «لتيتسيا بونابرت»[٣] (Laetitia Bonaporte)

---

٣ ـ لتيتسيا بونابرت: أم نابوليون الأول.

ـ من اعـادة اسـرتها إلى السلطة بواسطة ثروتها . وبخلاف السيدة الكورسيكية كانت هي نفسها العنصر الفعال .

منـذ البـدايـة كانت سورية تعز «جوليا دومنا» واختها على حد سواء . وبعـد عودتهـا إلى حمص عاشت «ميسـا» عنـد اقـربـائها ، غير انها كادت لا تتحمـل حيـاة المـرؤوس بعـد ان تمتعت بالسلطة ، ولذا كانت معاناتها لا تقل عن معـانـاة جوليـا نفسهـا . ولكن بينها استسلمت «جوليا دومنا» وقضت، لم تتنـح «ميسـا» عن مسـرح الأحـداث . لقـد اصبحت حمص منفاها ولكن في الـوقت نفسـه كانت نقطـة انطـلاق اعتـداءاتهـا . ولربما كانت تراقب بشماتة اخطاء «ماكران» الذي انغمس في النعيم حتى تحولت عنه قلوب جنوده ، كما انـه كان مولعـاً بالمسـرح واللعب مفضـلاً المـلابس المدنيـة المترفـة على لباس الجيش ولم يقم بواجباته . ولم يطل الأمر حتى ظهرت «ميسا» علنياً (٢١٨م) .

وقـد اعتمـدت خطتهـا على الظـروف الخاصة في موطنها . والواقع أن «جـوليـا دومنـا» كانت ابتعـدت تدريجيـاً عن جذورها الحمصية ، أما «ميسا» وابناؤ ها فلم يقطعوا العلاقة بجذورهم في يوم من الأيام . كانت حمص وطنها الطبيعي والفكـري معـاً . وعـلاوة على ذلـك تعـد تلك المدينة من أكثر مدن سورية تعصباً في الماضي والحاضر[٤] . فقد كانت عبادة إله الشمس مركز حياة أهلها ومعناها . وبينما كانت «جوليا دومنا» وهي على العرش القيصري ، تهتم بمـوجـة الفلسفـة المعاصرة ظلت «ميسا» وأسرتها تعبد إله شمس وطنها الذي كان إلهـاً قويـاً متعصباً مثل كل الآلهة من نوعه . كانت «ميسا» ابنة «باسيان» (Bassianus) كاهن إله الشمس ، وكانت حريصة على تولية حفيديها منصب الكاهن هذا .

---

٤ ـ لا ندري كيف كون المؤلف فكـرتـه هذه عن اهـل حمص ، ذلك ان شخصية الحمصي كما يعـرف الجميـع تتصف بالانفتـاح والسـماحـة والطـابع الشمولي ، وهولا يتعصب حتى لمدينته ذاتها ـ المراجع ـ .

تمركـزت بالقـرب من حمص فرقـة عسكـريـة لضمان طاعة هذه المدينة القلقــة . وكلما دخــل الجنــود إليهـا رأوا ابن «ســوايميـاس» «إيـلاجبـال» (Elagabal) في هالـة الكهنـوت ، فاستطـاع بشبابه وجماله وسلوكه القوي الأثر كسب قلب الـرجـل البسيـط . باحت «ميسـا» أول ما باحت بنسب حفيـدها الحقيقي أمـام أقـربـائها ، حماة أسرتها ، الذين كانوا في عداد جنود هذه الفرقة العسكـريـة . وقـالت ان «كـاراكـلاّ» الشـاب كان قد انجب ابنـين من ابنتي خالتـه ، فولـدت له «ســوايمياس» . «إيلاجبال» . كانت المرأة السورية المكارة قد عقـدت أملهـا على تعلق الجنـود سابقاً بـ «كاراكلاّ» الذي كان في الأمس معبـودهـم ومـازال اسمه يملأ الأسماع . وبالفعل لم تخطىء «ميسا» التي كانت تعتمد على معاونين مهرة وعلى بذل الأموال .

في احـدى الليـالي ظهرت «ميسا» مع انصارها في معسكر الفرقة . كان كل شيء مهيّأ فنـادى الجنـود بـ «إيـلاجبـال» قيصـراً منـدفعـين إلى القتـال لصـالحـه . انتشر الخبر بسرعة ، وبفضل كراهية الجنود لـ «ماكران» وتذكرهم عطايا «كاراكلاّ» السخية ، بالاضافة إلى المال الذي بذلته «ميسا» ، ازداد عدد المقاتلين . غير ان «ماكران» لم ينتبه للخطر ، وكان كل ما فعله انه ارسل قائد حرسـه «جـوليان» على رأس جيش لقمع المتمردين في حمص . عُرِض لهؤلاء «إيـلاجبـال» واقفاً أعلى سور المـدينـة وقيـل لهم إنـه حقـاً ابن «كـاراكلاّ» ، وليتأكـدوا من نسبـه هذا نصب تمثال «كاركلاّ» الشاب فتبين لهم التشابه بينهما (تؤكد التماثيل التي بقيت لنا هذا التشابه) . وعند ذاك فارقت جنود «ماكران» الـرغبـة في القتـال ووقفـوا ضد «جـوليـان» وضـربـوا عنقه وأرسلوا رأسه إلى قيصـرهـم الســابق الـذي خذلـوا لواءه . أمـا في المعـركـة الفاصلة أمام أسوار انطاكية فقد بدا ان الحظ يعود إلى جانب «ماكران» عندما اضطربت صفوف القيصر المضاد . في هذه اللحظة نزلت «ميسا» و«سوايمياس» من العربة التي رافقتا فيها الجيش ونجحتا عن طريق التوسل والوعود في إيقاف الهاربين . ثم

لم يتردد «إيلاجبال» أن يلقي بنفسه إلى المعركة مشجعاً جنوده . ، غير ان هرب «ماكران» الجبان هو الذي حدد النتيجة اذ حاول متنكراً بعد ان حلق ذقنه ان ينجو بنفسه . فلقي أجله في الطريق ومثله ابنه «ديادومينيان» (Diadumenianus) الذي كان قد توجه إلى البارث .

إيلاجبال القيصر

لقد نجحت الخطة فجأة ، وحققت «ميسا» هدفها . أما «إيلاجبال» فقد كان مقوداً ومدفوعاً اكثر منه مقرراً مصيره بنفسه . والواقع ان هذا الشاب انتقل ، في رقي عظيم ، من منصب كاهن إله الشمس إلى المكانة العليا في الامبراطورية ، ولا بد من شخصية غير عادية لمن يريد ان يمر سليماً بمثل هذا التحول ، ويتكيف مع الواجبات المتغيرة والمترتبة على مكانته الجديدة . ولكن المحظوظ لم يتمكن من ذلك إذ ظل يعتبر نفسه خادماً لإلهه وهو جالس على العرش . وتصرف على هذا الأساس منهمكاً في خدمة إلهه بتشجيع من أمه .

بصفته قيصراً كان اسمه «أنطونيوس» دلالة على انتسابه إلى «كاراكلا»(*) . غير ان معاصريه والمؤرخين أطلقوا عليه اسم «إيلاجبال» الذي لم يكن في يوم من الأيام اسمه هو . ان «إله الجبل» كان اسم «هيليوس» الحمصي وليس اسم كاهنه . إلا ان الأخذ بهذا الاسم كان له مسوغاته في سعي القيصر الدؤوب لأن يخدم هذا الإله ، وان يجعل منه سيد روما ليتبوأ المكانة الملائمة له في عالم الآلهة الرومانية . فلم يكتف القيصر بتزويج إلهه من

* ـ اسم كاركلا القيصري : م . أوريليوس أنطونيوس (M. Aurelius Antonius)

إلهة قرطاجة السماوية، بل ربطه بأكثر مقدسات الديانة الرومانية هيبةً كحجر الأم الكبرى ودروع الساليين[٦] وشعلة فيستا المقدسة التي أمر بنقلها إلى معبد الإله الجديد.

شيد هذا المعبد في روما بعد وصول الحجر النازل من السماء والعائد لإله الشمس الحمصي. وكانت تيجان أعمدة المعبد تحمل صورة الحجر تشخيصاً للإله الذي يتزوج من «مينرفا» (Minverva) وربّة قرطاجة السماوية. كان «إيلاجبال» وأمه وجدته يمارسون داخل الهيكل المقدس طقوساً سرية أثارت استنكار الرومان أكثر فأكثر، كإنشاد الأغاني السورية مثلاً وتقديم الصبيان قرباناً، كما شاع على ألسنة الناس في حينه، وممارسات اخرى كانت في نظر الرومان شاذة بقدر ما كانت مألوفة في موطن القيصر.

بمناسبة الاحتفالات الرسمية قدمت مئات القرابين على المحاريب كما قدم اعتق النبيذ وانفسه. وكان القيصر نفسه بصفته كاهناً يرقص حول المحاريب على ألحان أناشيد الجوقات المؤلفة من النساء السوريات وإيقاع الصنوج والطبول. وكان من بين مشاهدي هذه التمثيلية الغريبة كبار مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان، كما كان ذوو المناصب الكبيرة يقومون بأرديتهم البيضاء وفق الزي السوري بدور المعاونين أثناء تقديم القرابين.

ثم شيد معبد ثان امام أسوار المدينة، وفي منتصف الصيف كان القيصر ينقل الحجر المقدس على عربة إلى هذا المقر الريفي. وكانت ستة خيول بيضاء تجر العربة التي لم يسمح لإنسان الجلوس فيها ولا ان يمسك أزمتها التي لفت حول الحجر المقدس، اذ ان الإله نفسه كان حسب المعتقد يقود العربة. اما «إيلاجبال» فكان يمشي في المقدمة وظهره إلى الأمام حتى لا يصرف نظره عن وجه ربّه أبداً. وعلى الطريق المكسوة بذرات الذهب

---

٦ ـ الساليون: قبائل الإفرنج التي وضع فرسانها رموزاً ذات محتوى ديني على دروعهم طلباً لحماية الآلهة.

كانت مهمة الحرس حماية الحاكم من الوقوع.

لقـد زوّج القيصر ـ الكاهن إلهه من عدد من الإلهات. ولعقد الزواج بين الحجـر المقـدس والإلهـة «بـلاس أثينـا» (Pallas Athena) أو «منـيرفـا» (Minerva)، كما كان يسميهـا الـرومـان، طلب صورة الإلهـة التي قيـل انهـا جاءت من طروادة، ونقلهـا من كنف كاهنـات الإلهـة «فيستـا» (Vesta) إلى معبـد «هيليـوس». غير ان «منـيرفا» لم تصلح لهذا الزواج بسبب خصائصها الحـربيـة فحلت إلهـة قرطـاجـة محلها. وعلى غرار إلهه تزوج «إيلاجبال» هو الآخـر من عدد من الـزوجـات الـواحـدة تلو الأخرى ثم انفصل عنهن، ومن بينهن احـدى كاهنـات الإلهـة «فيستـا» على الـرغم من انه كان زواجاً مخالفاً للعرف الاجتماعي[٧]. ولعله رأى في كونه كاهناً وكونها كاهنة ما يسوغ هذا الزواج.

أمـا الـرومـان فرأوا من ذلـك الـزواج سخرية السخريات من الديانة الـرومانية وتقاليدها، كما ان حياة «إيلاجبال» أثرات غضب معاصريه بشكل عام. فقـد بدت هذه الحيـاة التي انقاد لها محكومة بغزائره فقط، مما جعل الناس يلصقون به شتى أنواع التهمات ولا يستبعدون عنه شيئاً على حسب اوصاف معاصريه والمؤرخين المتأخرين التي لا يزال يتوقف عليها تقييم هذا القيصر.

هكـذا لم ينـل سلوك «إيلاجبال» استحسان أهل روما. ولا شك في ان الكـاهن الشـاب كان يقـدم صورة رائعـة بإكليله النفيس وردائـه الأرجـواني المـذهب الـذي كان يلبس تحتـه البنطـال الشـرقي الطويل المصنوع من نفس القماش. وكان هذا المظهر يناسب ريعان شبابه وملامحه الأنثوية الناعمة حتى انه شبه بالإله «ديونيسوس» الشاب. ولكنه لم يفكر في التخلي عن هذا الشكل

---

٧ ـ لأن كاهنات النار في معبد فيستا كن ممنوعات عن الزواج خلال فترة خدمتهن ـ المراجع.

الاستعـراضي وهـو القيصـر، فظهـر صاحب المكـانة العليا راقصاً مع النساء السـوريـات عنـد محراب إلـه على إيقاع الطبل والمزمار واضعاً الأصباغ على وجهـه مزينـاً عنقه بالعقود، مرتدياً الأردية المصنوعة من الحرير الصيني، فبدا يفتقر إلى كل مميزات الرجل. ولم يلبس التوغا (الرداء الروماني) إلا مضطراً.

ولكن علينـا ان نتسـاءل عما اذا كانت الأوصـاف التاريخية لكبار مجلس الشيـوخ الحـاقـدين كافيـة وحدها لفهم سلوك «إيلاجبال». والحق ان بعض الظواهر التي اثارت أكبر الاستنكار تكشف عن دوافع دينية خاصة. لقد كان «إيلاجبال» تحت تأثير تصورات وطنه، وكل ما حرّك عواطفه كان له أصل في الطقوس السورية أو الشرقية بشكل إجمالي.

لنـذكـر في هذا المقـام المنشـآت المسماة «Versatilia triclinia» التي أثارت أكبر استنكار بسبب ترفها، أنها كانت عبارة عن حجرات طعام متحركة حيث كانت تتسـاقـط أمطـار من الأزهـار على الجالسين حول المائدة. والحقيقة انها ترجـع، عبر البنـاء المستـديـر المتحرك في «الدار الذهبية» التي شيدت في عهد «نـيرون» (Nero) (٥٤ ـ ٦٨م)، إلى أشكـال تقاليد الشرق القديم وايران. وقد جمع هذا الرمز إلى نظام عالم كوكبي بين الامبراطور وكاهن إله الشمس.

لا نقصد في حال من الحالات انكار سلوك «إيلاجبال» الماجن، ولكنه لا بد من الاشارة إلى ان «إيلاجبال» كان يجمع بطريقة خاصة بين الشهوانية والتقـوى. لقـد وصف «ت. إ. لـورنس»[٨] (T.E.Lawrence) الساميين بأنهم «شعب يغـوص حتى العينـين في الوحل في حين ان حاجبيه يمسان السماء». وتقـدم آخـر صورة من الصـور المحفوظة أعجب منظـر لقيصرنـا «بشـاربيه النـاعمـين فوق الشفتين الممتلئتين ذات الانحناء الشديد المعبر تعبيراً خاصاً

---

٨ ـ ت. إ. لورنس: ١٨٨٨ ـ ١٩٣٠م، قاد خلال الحرب العالمية الأولى حملة العرب ضد الأتراك ووصفها في مؤلفه «أعمدة الحكمة السبعة».

عن التهالك على اللذات. كان يجمع بين شهوانية الحيوان الغريزية والمكر والطيش والنزوات». (هـ. ب. لورانج -H. P. L'Orange) .

ولكننا بالإضافة إلى هذا الجانب نلاحظ تسليم القيصر المطلق لإلهه الذي أراد ان يكون كاهنه ولا غير ونحس بتعصبه الديني. وكان لا يخلو من هدوء الإنسان الشرقي والاستغراق في التأملات النفسية كما يظهر من نظرته العميقة والحالمة.

سقوط إيلاجبال

عندما أشاعت «ميسا» أبوة «كاركلا» لـ «إيلاجبال» لم تعارضها «سوايمياس» بشكل من الأشكال، ولم تكترث للتهمة بعلاقتها الجنسية في السر وهي شابة. على الأغلب لم تكن «سوايمياس» ذواقة في اختيار عشاقها. فمثلاً هذا «غانيس» (Gannys) مربي ابنها الذي نشأ في بيتها كان ينتمي إلى طبقة سفلى ومع ذلك كان من مقرّبيها، ومن حين إلى حين فكر الابن الواسع الصدر في جعله قيصراً حتى تستطيع امه أن تتزوج منه. غير ان خشية التلميذ من نصائح معلمه المزعجة وغير المرغوب فيها قد انتصرت في نهاية المطاف. وهكذا كان «إيلاجبال» بالذات من وجه الضربة الأولى ضد الرجل الذي رباه واستمال له قلوب الجنود ثم حمله على النصر واعتلاء العرش، والذي كان عاشق امه.

كان الاثنان، الأم والابن متكاملين تكاملاً تاماً كأن الواحد منهما خلق للآخر. غير ان مثل هذا الحب ينطوي في أعماقه على قوة الشر الغيورة، تلك التي لا تسمح باستيلاء أي غريب على قلب الآخر. كانت العلاقة بين «سوايمياس» و «إيلاجبال» تقترب من ذلك الشعور الذي عرّفه الشاعر

الخيـالي الإنكليزي «د. هـ . لورنس» (D.H.Lawrence) (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠م) بمصطلح «الأبناء العشاق».

بعـد دخـول «سوايمياس» في البلاط القيصري وتعيينها قيصرة أخذت تشترك بلا حياء في كل أنواع المجون، وذهب الرأي العام إلى أن الأم جديرة بالابن. وكان لا يتم شيء دون موافقتها غير انها عجزت عن ضبط الأمور في الـوقت المنـاسب. كان الـرومـان يتحـدثـون بسخـرية عن مجلس الشيخات برئاسة القيصرة حيث اتخذت القرارات المتعلقة بالثياب والتحية ونظام المراتب أي بكـل توافـه الحيـاة النسائية، استمر الأمر على هذه الحال حتى بعد تحول جميع القلوب عن القيصر واقترابه من النهاية.

وقد استمر «إيلاجبال» في سلوكه الماجن بلا حدود، الذي أضيف إليه مجون مقـرّبيـه ورفـاق حفـلاتـه. وارتقى كل من الـراقصـين والممثلين وقـواد العربات والحلاقين أعلى المنازل لمجرد انهم اثبتوا جدارتهم في حفلات البلاط الماجنة. وحتى «ميسا» نفسها لم تنجح باعتراضها على تبذير حفيدها ورفاقه. كان «إيـلاجبـال» لا يهتم بنصـح هذه المـرأة المتعصبة للإله الحمصي وهي في رومـا بأن على القيصـر ان يبـدل ثوب الكاهن بالتوغا في المناسبات الرسمية. ولما رأتـه «ميسـا» ينطلق في موكب يتألف مما لا يقـل عن ستـين عربة شرف، شكت من طيشه الـذي سوف يحطمهم كلهم فقد كانت تلاحظ أن عداوة الناس للقيصر ازدادت يوماً بعد يوم فتراءى لها مرة اخرى كابوس السقوط إلى حياة الرعاع.

في هذا المأزق قررت ابعـاد «إيـلاجبال» وتعيين ابن ابنتها «مميا» المطيع محله. والحق ان «ميسـا» وقفت حيـاتهـا كلهـا في خدمة أسرتها، ولم يكن أشق عليهـا من اتخـاذ قرار كهـذا. ولكنـه كان لابد من قطع العضو الفاسد لانقاذ البـاقي. وبـالفعـل نجحت بالتملق في اقناعه بتبني ابن خالته وتعيينه قيصراً. قالت له انـه يستطيـع في هذه الحـالـة التفرغ لإلهه وتعبده في الحفلات الماجنة

وممارسات الطقوس في الوقت الذي يقوم الآخر بادارة شؤون الدنيا .

واقتنع «إيلاجبال» فعلاً بما قالت له «ميسا» ، ولكن بعد فوات الأوان . فاضافة إلى غضب الشعب ومجلس الشيوخ الخفي ، جاء تمرد حامية العاصمة التي اعلنت عن تأييدها للقيصر الجديد ، ولما تأزمت الأمور ظهرت «سوايمياس» على مسرح الأحداث .

وقد سبق لها انها دخلت حلبة الكفاح ضد «ماكران» لصالح ابنها عندما وقفت هي وامها في وجه الجنود الهاربين . والآن عندما هم الجنود بخذلان «ايلاجبال» والانضمام إلى صف ابن «مميا» ، تدخلت «سوايمياس» مرة اخرى . وكان من العجيب ان يشتبك ابنا الخالة امام الجنود في الثكنة حيث تم في الليل وسط جمع صاحب الفصل في قضية القيصرية . وقد ألقيت مهمة تصفية الخلاف على عاتق الأمّين اللتين وقفتا وجها لوجه في حديث وشجار متصارعتين لأجل نفسيهما وابنيهما ، وبقاء احد الطرفين بعد انقضاء هذه الليلة . ولما طلع الفجر تخلى عن «إيلاجبال» بقية أتباعه فمات هو وامه التي ضمته إلى صدرها إلى آخر أنفاسها . وقطعت رقبتا الجثتين ثم جرتا في الشوارع واخيراً ألقيت جثة «إيلاجبال» في نهر «التيبر» (٢٢٢م) .

لقد رأت «ميسا» نتيجة عملها ، ولما هدأت الأمور ظهرت من جديد لتقوم مرة أخرى بتوجيه الأحداث . لم تبتكره تشويه ذكرى القتيل ولا تسميته بالطاغي والظالم ، اذ بدا لها أن مرحلة سيادة ذات حظ أوفر قد بدأت وان سيطرة بيتها مضمونة . واتيح لها ان تستمتع لمدة أربع سنين أخرى بالسلطة ثم عاجلتها المنية حتى لا تشهد الضياع .

الفصل الثالث

ديانات الكتب

مع سقـوط «إيـلاجبـال» (٢٢٢م) لم تنتـه سيطرة الأسرة الحمصية ولا سيطـرة الشـرقيـين على عرش القيصر. أما بالنسبة لإله الشمس فلقد بدأت مرحلة جديدة باعادة حجره المقدس إلى وطنه سورية، واعطاء معبده في روما لإله آخر. ولكن التاريخ كرّر نفسه بالطريقة التي رأيناها بعد وفاة «كاركلا»، إذ اتـاح الـردّ إلى أرض الـوطن فرصـة لاستعـادة القـوى، مع فارق ان فترة الانتظار امتدت هذه المرة على ما يزيد عن نصف قرن.

لقـد اتضـح أنـه لا بدّ من التخطيـط الشامل والتصرف المتأني بدلاً من الانتصارات السريعة، فلا يجوز مداهمة عالم ما على حين غِرة، بل يستحسن كسب ثقتـه أولاً. كان لا بدّ من البحث عن حلفـاء وعقد العزم على التبشير بالإلـه. وهنـا توفـرت وسيلتـان، احـداهما الـرواية الكلاسيكية المتأخرة كقوة أدبيـة، والأخـرى الفلسفـة الأفلاطونية المحدثة كقوة فكرية. وبفضل هاتين الـوسيلتـين تحول مركـز ثقـل الأحـداث عن المسـرح السيـاسي إلى الكتـابة والتعليم، اذ اصبح الكتاب يؤثر في مجرى التاريخ.

في ذلـك العصـر لم يكن الكتاب أمراً طبيعياً بعد، كما هو الحال اليوم. وعنـدمـا بدأ يتطور ليصبح قوة فكرية وتاريخية، اتخذ اتجاهات مختلفة ومجالات متنـوعـة. وعند ذاك وُظّف الكتاب للحفاظ على الموجود (وهذ ما سنعالجه في هذا الفصـل)، وكـذلـك لنشـر معلومات جديدة. كان جمع الموروث يشكل النـاحيـة المحـافظـة التي ظهـرت إلى جانبهـا النـاحية التبشير ية، ان لم نقل

الثـوريـة . وقـد حاولت الـديـانـات الكلاسيكية المتأخرة، التي كانت تشكل القوى الفكرية في عصرها، توظيف احد هذين الاتجاهين واصبحت تتصف بسمات الاتجاه الذي اختارته لنفسها .

واخـذت الـديـانـة الشمسية دورها، الذي يتطلب منا توضيح خلفيته حتى نفهم أبعـاده . واذا كان في نجـاح الإلـه الحمصي السـابق ما يدعو إلى الدهشة، فانه لا يقل عنه الطريق الجديد الذي اتبعه اصحاب هذه الديانة .

كتب مقدسة

كان صاحب الـدعـوة الإسلامية يعتمد على الفكرة القائلة بأن رسالته التبشير ية في جوهرها متطابقة مع الديانات السماوية السابقة لها . فكل الذين آمنـوا بيـوم الدين وعملوا الصالحات لهم جزاؤ هم عند الله ولا خوف عليهم . صحيـح ان محمـداً ـ دون غيره ـ تلقى من ملاك الله الكلمة غير المخلوقـة بشكلها الكامل وصيغتها الشرعية، ولكن الآخرين ايضاً امثال اليهود والصـابئـة[1] والمسيحيـين والمجـوس كانوا اصحاب ديانات سماوية لا شك في أصـالتهـا بدليـل وجود كتبهم . وعلى الرغم من انهم لم يكونوا مسلمين كانوا يستحقون الاحترام والتسامح لكونهم من «أهل الكتاب»[2]

وبهـذا اكتسب الكتـاب والكتـابـة اهميـة لم تكن لهما من قبـل . كانت الـتراتيـل الفيـديـة[3] والنصـوص الزرداشتية تنقل شفاهةً فقط عبر القرون،

---

١ ـ الصابئة : طائفة دينية ظهرت في حرّان في العصر الاسلامي .

٢ ـ يستعمـل المؤلف هنـا عبـارة «أهـل الكتـاب» بمرونة كبيرة، فيعزو إلى الاسلام قبول الصابئة والمجوس في عداد أهل الكتاب، وهذا غير صحيح ـ المراجع .

٣ ـ الفيدية : نسبة إلى الـ «فيدا» وهي الأسفار السنسكريتية القديمة في الهند .

وكانوا ينظرون إلى النقل بالطريقة الشفوية من المعلم إلى التلميذ ومن جيل إلى جيل نظرة تقديس، ويعتنون بها حتى في العصور التي ظهرت فيها الكتابة إلى جانب هذا التقليد. و«هوميروس» نفسه الذي كان يعرف الكتابة، ويلمّح بهذه المعرفة احياناً، ابعد فن الكتابة كله عن عالمه قائلاً بانه ممارسة دنيئة لا تليق بالأبطال. فمن المستحيل تصور «آخيل» أو «هكتور» أو «أغاميمنون» أو «فريام» وبيدهم ادوات الكتابة! قد يكون المصريون أو الإترسكيون اعتادوا رؤية آلهة كاتبة، لكن أبواب الأوليمب ظلت مغلقة امام الإله الكاتب. يهمنا من كل هذا ان بداية العصور القديمة تختلف عن أواخرها اختلافاً شديداً في تقييم الكتاب والكتابة. فمحمد لم يكن الوحيد الذي نظر نظرة احترام إلى الكتاب، بل هناك من سبقه إليه بقرون.

وبالفعل لم يكن محمد المؤمن الوحيد بوحدة الديانات السماوية، وانما كان يشاركه في هذا الإيمان العديد من المبشرين وأصحاب الرسالات، وهذا ليس من باب الصدفة. لأن الله واحد، واذا توجه الله بكلمته إلى الانسان على اختلاف المكان والزمان فلا بدّ من ظهور هذه الوحدة. هكذا نرى في مشهد التجلي، الذي يشكل محور إنجيل «مرقس»، المسيح واقفاً إلى جانب «إيليا» و«موسى». هذين المبشرين الكبيرين[٤] في العهد القديم؛ وعلى العموم كان، ولا يزال، العهد القديم والعهد الجديد مترابطين بخيوط لا حصر لها، فتتكرر الأقوال في العهد الجديد عما هو مكتوب في العهد القديم وكيف يجب ان يفسر، وعن السُّنة القائمة ابداً، وتحقق النبوءات كلها. وقد تأكد من هذا ان الوحي المدوّن، في الماضي والحاضر، هو الأساس الثابت. كان محمد يقترب إلى ابعد الحدود من ثالث الأديان السماوية الكبرى الذي لم تتضح ملامحه وأهميته التاريخية إلاّ في عصرنا، ونعني بذلك المانوية، وذلك

---

٤ ـ العهد الجديد، مرقس ٩ : ٤ .

رغم عدم وجود صلة مباشرة بين الدينين.

لـ «ماني» (٢١٨ ـ ٢٧٦م)، صاحب المانوية، أيضاً سابقوه الذين كثيراً ما أشار إليهم بالحاح. ففي كتاب ألفه «ماني» خصوصاً لـ «شابور الأول» (٢٤١ ـ ٢٧٢م)، ملك الساسانيين، نقرأ في الصفحات الأولى أسماء «بوذا وزرادشت وعيسى». وقال «ماني» ان حكمة الله واعماله قد وصلت الينا «في فترة زمنية معينة بواسطة رسوله «بوذا» في بلاد الهند، وفي مرحلة اخرى بفضل «زرادشت» في بلاد الفرس، ثم مرة ثالثة عن طريق «عيسى» في البلاد الغربية». «فالله قد هيّأ لكل جيل الظروف للتصرف الصحيح وللمعرفة الحقيقية». لذلك رأى «ماني» في الأنبياء القدامى أسلافاً له ودمج تعاليمهم في تعليمه الخاص به، لأن المعرفة الإلهية واحدة على اختلاف الزمان والأمم واللغات.

إلا أن الرسالة التبشيرية الجديدة لم تتأخر عن ابراز ما كانت تتميز به عن سابقاتها. ورأى «ماني» ان تعليمه «أفضل واحسن من الديانات الأخرى السابقة له لأنه توجه الى البشر كلهم. قال «ان الديانات السابقة ظهرت في بلد واحد وفي لغة واحدة فقط. اما ديني فيظهر في كل البلاد وجميع اللغات وسوف ينتشر في أقصى البلاد».

كان «ماني» ختاماً لمرحلة من تاريخ الدين ألغيت فيها حواجز القوميات واللغات.

يعزو «ماني» إلى نفسه فضلاً آخر يتميز به عن أسلافه ويجمعه مرة اخرى مع «محمد». ألا وهو تقديم الكتب الموثوق بها التي تعتبر مرجعاً لدينه. كان يفتخر بكتابتها بنفسه ويحرصه على كتابة نسخها بمنتهى الدقة. أما «بوذا» و «زرادشت» و «عيسى» أنفسهم فلم يكتبوا شيئاً بل تركوا مهمة تأليف الكتب المقدسة وصياغتها لتلاميذهم وخلفائهم. ويعزى إلى «ماني» تأليف اكثر من كتاب ولكن كتبه كانت تواجه كتباً موحاة اخرى لديانات

اقـدم. وهـذا يعني ان «مـاني» وجـد وقت ظهـوره ـ ألقى خطبته الأولى أمام الجماهير يوم تتويج «شابور الأول»، ملك الساسانيين ـ سلسلة من «الكتب» الدينية المختلفة المنشأ والاتجاه.

هناك الكتابات المقدسة الزرادشتية التي عرفت فيما بعد باسم «الأفيستـا»(٥). وعنـدمـا أشار «ماني» إلى أن تلاميذ صاحب هذه الديانة هم الذين كتبوا الأفيستا، كان يعتمد على الخبر المنقول والقائل بأن «جامَسْب»، تلميـذ زرادشت وصهـره، هو الـذي حقق ذلـك. وهذا يعني ان «ماني» كان على علم بوجود كتابات أفيستية، ويحتمل انه عرف محتواها إلى حد ما. مع ذلـك كان عاجـزاً عن التمييـز بين الأناشيد الأصلية العائدة للرسول والكمية الهائلة من الكتابات المتأخرة، لأنه لم يعرف بعد مجموعة الكتابات المحررة التي اصبحت المرجع الديني المثبت في أيامه.

كان أتباع الزرادشتية قد باشروا بدورهم في ايجاد «كتاب» دينهم. واذا كان «ماني» قد الف تعاليمه بنفسه، فقد كان على الآخرين ان يجمعوا ما بقي لهم من قديم الزمان، وان ينظموه ويقدموه نصاً واضحاً. كانت المانوية تتوجه إلى العـالمـين كافـة متجاوزة الحدود القومية واللغوية، في حين ان التأليف قد اعـاد إلى ايـران دينهـا القـومي وشيئـاً من تراثهـا. ولذلك لم يتوقف جمع تلك الكتابات على جهد فردي وانما تم بفضل الأسرة المالكة التي قامت بنهضة في ايران وأعادت للمملكة والدين عظمتها، وامرت بجمع النصوص الأفيستية ووقفت داعمـة لهذا المشـروع. ويجـدر بنـا ان نشـير إلى ان تجديـد المؤسسة الـدينيـة الزرادشتية توافق مع ظهور الساسانيين وجمع الأفيستا زمنياً وروحياً. ومن ثم لقد اختلف «ماني»، الذي كتب تعاليمه بنفسه وترك أمر الحفاظ عليها ونشرها إلى تلاميذه عن محرري الأفيستا، الذين قاموا بعملهم بأمر من الملك والكهنـة، اختـلافاً عميقاً، إلا انهم اشتركوا في ايجاد الكتب الخاصة بدينيهم

٥ ـ الأفيستا: الرسالة التي عهد بها «أهورا مازدا» إلى نبيه زرادشت.

في نفس الوقت وفي نفس البلد ولنفس الهدف ولصالح حضارة مجتمعهم.

لم تخض المؤسسة الدينية في الدولة الساسانية المعركة على الصعيد الفكري وحده، بل نجحت ايضاً في مقاضاة تعليم «ماني» ثم محاكمته، على الرغم من انه كان في اول الأمر يتمتع بالتسامح ويتلقى التشجيع في بعض الأحيان. ومن المعلوم ان احد مؤسسي الديانة الرسمية الزرادشتية المنتمي إلى الجناح الأورثوذكسي والمعروف باسم «كادر» كان بين قضاة «ماني». وهكذا يوافق جمع نصوص الأفيستا القضاء على الخصم. وفي الوقت الذي وجهت فيه الضربة القاضية إلى الدين العالمي الجديد الذي كان قد تمتع برعاية ذوي السلطة وحتى الحاكم نفسه، تم بناء أسس العقيدة الزرادشتية المجددة ووضع الكتاب الخاص بها في وجه كتب المانوية.

وجه النقد إلى «ماني» وإلى ما رآه فضلاً لنفسه على الآخرين اجمالاً، وتبين انه كان يجهل وجود «الغاتا»[٦] وهي أناشيد الدين الزرادشتية الأصلية التي اصبحت الآن تحتل المكانة الملائمة لها في النصوص الأفيستية، والتي دونت حرفياً بمنتهى الدقة حتى استطاعت الوقوف في وجه ادعاء «ماني» ان كل كتبهم لم تكن إلا نصوصاً مدونة على يد المتأخرين. والأمر الذي قرر النتيجة هو ان صيغة الكتابة الزرادشتية كانت أفضل من كتابات «ماني».

بذلك بدأت معالجة المشكلة من جذورها. فإذا كان المطلوب تدوين الكتاب بصيغته الصحيحة المثبتة، كان لا بدّ من تثبيت النطق بدقة. واذا تميزت صورة الكتابة بقلم «ماني» بتوضيح الصوائت بكشل افضل من الكتابة السائدة آنذاك، فان كتّاب الأفيستا قد استخدموا أبجدية ذات صوائت على غرار الأبجدية اليونانية، فخرجوا لأول مرّة عن قواعد الكتابة السامية المعتمدة على أصول الكلمات المكونة في الغالب من ثلاثة احرف صامتة، وهكذا تميزت نصوصهم المكتوبة بالأحرف الصامتة والصائتة بوضوح اكبر.

---

٦ ـ الغاتا: الأناشيد الدينية التي تشكل جزء الأفيستا الأقدم.

لم ينـافس كتـاب الـزرادشتية المقدس كتابات «ماني» فحسب، بل بدأ كل من اليهـود والمسيحـين والغنـوصيـين وأمثـالهم في كل انحاء العالم القديم يحسـون بالحـاجـة الملحـة إلى كتب صحيحـة لإثبـات دياناتهم والحضارات المتعلقـة بها. اذا لم يكن جمع الأفيستـا أكثـر من حلقـة في سلسلة من التدابير المماثلة التي جرت في القرن الثالث الميلادي. وبالفعل تم جمع هذه الكتب في حدود قرن واحـد، غير ان الأمـر الـذي فاق ذلـك اهميـة هو توافق ظهـور «زرادشت» مع ظهور احداث مشابهة، ومن اهمها بروز الأنبياء اليهود.

عصر التمحور

بامكـاننـا اليـوم ان نحـدد مدة حيـاة «زرادشت» بشكـل اكثر دقة من السـابق حيث وضعت فيـها بين مستهـل القـرن العـاشـر والقرن السابع قبل الميـلاد. اننـا نعلم اليـوم انـه ولـد عام ٥٩٩/٥٩٨ق.م. وانـه تلقى رسالته الإلهية الأولى عام ٥٦٩/٥٦٨ق.م. ثم توفي عام ٥٢٢/٥٢١ق.م.. بناء على هذه المعلومات كان «زرادشت» معاصراً لكلا النبيين «إرميا» الأكبر سناً و «إشعياء الثاني»[٧] الأصغر سناً منه، أي انه وجد نفسه بين الرجلين الممثلين لقمـة النبـوة اليهـوديـة. والواقع ان التنبؤ في شرق ايران وعند اليهود ليسا إلا تعبيرين عن ظاهرة تاريخية واحدة.

يضـاف إلى ذلـك ظهور «بوذا» في الهند المجاورة لبلاد الفرس معاصراً لـ «زرادشـت» الأصغـر سنـاً منـه، في الـوقت الـذي كان يعمـل فيـه «كونفوشيوس» في الصين، وكذلك ظهور الفلاسفة المتقدمين على «سقراط»

٧ ـ إشعياء الثاني (Deuterojesaja).

في اليـونـان في نفس الـوقت الذي جعلت فيه روما أخيراً عبادة «جوبيتر الإله الأعلى» (Jupiter optimus Maximus) العبـادة الـرسمية في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد.

غالباً ما يكتسب تصادف ظاهرة مامع ظاهرة أخرى أهمية كبيرة، وغالباً ما تدل كثـرة الأحـداث المتـزامنـة التي تبر ز فيهـا اسـماء الأعلام على ان هذا العصـر زمن ابـداع في أمـور حاسمـة. لقد ادت سطحية المعلومات التاريخية والتسـرع في التعميم إلى تمديـد فترة التمحـور الفكـري هذا عبر قرون* بتسويغات يمكن اهمالها. والجدير بالذكر انه يضاف إلى تزامن هؤلاء الرجال الذين سبقت الإشارة اليهم توافقهم الفكري.

ان العـامـل المشـترك بين هؤلاء الأعـلام هوموقفهم المناقض للقرون السابقة التي ابدعت الديانات الكبيرة. ففي بداية الألف الأول قبل الميلاد، وبعد ان توقف تجوال الشعوب الواسع، نشأت عوالم إلهية واصبحت موضوعاً فنياً في الملاحم والتراتيل الدينية. ومنها آلهة ملحمة «هوميروس» والمجموعات الفيـديـة[٨]، ومجمـع الجن في عصر سلالة «شانغ» وأول عصر «جو» وسحرتهم وعـرافـوهـم، ثم بدايات دين يهوه في عصر الملكين «داود» و«سليمان» وكذلك أسـطورة رأس شمـرا[٩] المزدهرة. وعلى الرغم من ان ظهور أولئك الأعلام لم يقلل من شأن جماعــة الآلهــة هذه لاحقـاً، إلّا ان التنـاقض المشـار اليـه قد حصـل. فعلى الـرغـم من اعـتراف الجميع ـ بوذا وكونفوشيوس، والفلاسفة قبـل سقـراط، وزرادشت، والأنبيـاء اليهـود ـ بالقـوى المـوروثـة فقـد قاموا

---

* ـ بتقديم ظاهرة وتأخير اخرى، كما رأينا فيما يخص تحديد زمن ظهور «زرادشت».

٨ ـ المجمـوعـات الفيـديـة الأربعة عبارة عن كتابات مقدسة عائدة للدين الهندي القديم، وتعود المجموعة الأولى بعنوان «رغفيدا» إلى الألف الثاني قبل الميلاد.

٩ ـ راجع فراس السواح: «لغز عشتار»، الفصل «عناة وبعل».

بمحاولة تعميق التصورات المتعلقة بهذه القوى وتنقيتها. انهم ارادوا احلال الجدية محل تلاعب الآلهة واستمتاعها بالحياة السماوية والقرابين التي كانت ترحب بها. واذا كانت تلك العوالم سابقاً تتميز بأبهة وسعادة مستمدة ملامحها من الملكية الدنيوية، فان المرغوب فيه الآن هو ايجاد المسوغ لكل شيء بما فيه الإلهي.

تميز الموقف الجديد بتحرير العالم الإلهي من الأسطورة وتنقية التصورات المتعلقة بالشخصية الإلهية، كما تميز بترسيخ الحياة الأخلاقية ووضوح المفاهيم بدلاً من الصور، بالاضافة إلى مبادرة الأنبياء بالقاء المواعظ. لم تظهر هذه الخصائص في كل مكان بنفس الحجم والتركيز ولكننا نستطيع تلمس الموقف الموحد في الخطوط الرئيسة بصورة عامة.

كان «زرادشت» والأنبياء اليهود (وهم المعنيون هنا أولاً) يشتركون في الدعوة الأخلاقية وتبسيط المفاهيم والتخلي عن الأسطورة طامحين في ان يعتبروا رسل الله ولسانه.

نستنتج مما سبق ان حركة فكرية قد وحدت البلدان الواقعة بين الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وشمال الصين في ذلك العصر القديم. وعندما نعود الى القرن الثالث الميلادي الذي شهد احياء تعاليم «زرادشت» باثباتها في الكتاب وجعلها مبادىء دين رسمي، نرى مرة اخرى وحدة الموقف في الدين والتعاليم الفلسفية التي كانت إلى حد ما تلك التعاليم القديمة نفسها مع فارق كبير انها كانت قبل الف سنة محرّكة بعقلية فتية طرحت براعمها وتبشرت بالازدهار والثمار، بينما هي الآن ضعيفة تكاد تتلاشى نهائياً. لقد تم تثبيت ما كان سابقاً روحاً إلهية حية بواسطة حروف محددة تحفظها في «الكتاب».

الديانة اليهودية والأفيستا

اصبحت معظم اللغات التي نطقت بها كتب العالم القديم المقدسة لغات ميتة لا تستعمل في حياة المجتمع اليومية، بل تحولت إلى لغات لأداء الطقوس الدينية فقط وقراءة التراتيل والأناشيد والصلوات وما إلى ذلك. كان ذلك شأن لغة الأفيستا واللغة العبرية ايضاً. ولتشابه الحالتين دلالة كبيرة، ولا سيما كيفية حل هذه المشكلة من قبل الطرفين، وطريقة تغلبهما على الصعوبات التي وقفت امام تدوين «الكتاب».

كانت المسألة اللغوية عند اليهود تمس أسس حياتهم الدينية والقومية. وكانت الحياة الدينية لجماعات اليهود الموزعة على مصر والبلدين المجاورين القيروان (Cyrenaica) وقبرص، وكذلك اليهود المقيمين في بابل ذات أهمية تفوق اهمية الديانة اليهودية الممارسة في موطنها الأصلي وذلك بسبب التجديدات ذات الأثر البعيد التي طرأت عليها هناك، حيث اصبحت اللغة اليونانية في الغرب أداةً لنقل ما قاله أنبياء الزمان بلسانهم الخاص من شريعة وتبشير أو تحذير غاضب. لنتصور فقط أن «فيلون (Philon) (١٥/ ١٠ق. م - ٥٠م) المدافع البليغ عن قومه ودينه كان لا يفهم اللغة العبرية وانما كان يعتمد على الترجمات اليونانية. أما في المنفى الشرقي وحتى في فلسطين بالذات، فقد حلت اللهجات الآرامية محل اللغة العبرية. وحلت النصوص المترجمة محل النصوص العبرية الأصلية. ولم تنتبه العقول للأمر إلا بعد حروب الإبادة التي شنتها روما ضد اليهود. عندئذ بدأت مرحلة احياء

التراث الذي اهمل اهمالاً شديداً في الوقت الذي كان فيه الاهتمام مركزاً على الثقافة الأجنبية. فأبعدت الترجمات اليونانية لصالح النصوص الأصلية وبدأ العمل لاعادة لغة الآباء إلى مكانتها.

لقد كتبت اللغة العبرية بكلمات تتألف من أحرف صامتة فقط. وفي الوقت الذي كانت فيه اللغة حية، كانت طريقة الكتابة هذه تفي بالغرض كما هو شأن اللغات السامية قديماً وحديثاً. ولم يشكل الانتقال من الخط الفينيقي إلى الآرامي أية صعوبة، ولا تطويره إلى الشكل الخاص باللغة العبرية. أما الآن واللغة العبرية لم تعد تستخدم في الحياة اليومية، فقد تبين ان الكتابة بالأحرف الصامتة فقط تركت ثغرات كبيرة، واصبح من العسير التأكد من النطق الصحيح والدقيق كما كان يقتضيه النص الديني. لفترة ما، استعملت ألأبجدية اليونانية بأحرفها الصائتة التي ساعدت على تسجيل النطق بدقة أكثر مما سمحت به الكتابة بالأحرف الصامتة. غير ان الإعراض الواعي عن كل ما كان يونانياً، سواءاً أكانت ترجمة او خطاً، استوجب البحث عن طريقة اخرى.

هنا يجدر بنا ان نذكر المخطوطات الشهيرة التي تم اكتشافها في الكهوف المحيطة بالبحر الميت. كانت وثيقة اشعياء، اللفافة (A)، أكبر مفاجأة بينها، وذلك ليس بفضل مضمون النص المكتوب عليها ـ وهو نص عادي لا تزال قيمته موضع نقاش ـ وانما بسبب طريقة كتابته. ويمتاز هذا النص باستفادة كبيرة، وخاصة في جزئه الثاني، بشكل منطقي من «عمادي القراءة»، أي حرفي الياء والواو، في محاولة أولى من الكاتب لأن يقدم المساعدة الكافية للنطق بالصوائت بهدف ازالة القصور المشار اليه اعلاه.

اتفق المختصون على أن تحديد تاريخ مخطوطة اشعياء بعصر المكابيين (١٦٨ ـ ٣٧ق. م) غير صحيح وإن عمرها اقل من ذلك بعدة قرون. ولربما تعود محاولة ادخال الأحرف الصائتة لتوضيح نص العهد القديم (المكتوب

بأحـرف صامتـة فقـط) إلى فترة ما بعد الحروب اليهودية ـ الرومانية وذلك في اطـار الجهـود المبـذولـة لتحقيق النهضـة. وتتبـين من هذه المحـاولـة طبيعـة المشكـلات التي وقفت في وجـه طريق العـودة المنشودة إلى النصوص العبر ية الأصلية، اذ اتضح أنها كانت طريق مسدودة أيضاً. والحقيقة ان ادخال «عمد القـراءة» كان يعني النيـل من النص المقدس المنقول بالأحرف الصامتة، وفتح الأبـواب على مصـراعيهـا لكل أشكال التغيرات وألوانها التي رفضتها عملية إثبات النص الصحيح المعتمد على الأحرف الصامتة التي كانت قد بدأت في الوقت نفسه.

كان «أوريجينس» قد شرع قبل عام ٢٢٠م بترجمة اسفار العهد القديم الستـة التي أكملهـا قبيل النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، بعد ثمان وعشرين سنة من العمل متبعاً فيها اساليب البحث والتدقيق. ويظهر لنا من الأجـزاء التي بقيت من العمـود الثـاني للمخطـوط ان هذا العمل كان يعتمد على نص عبري ذي شكل أصلي يستبعد عنه أي تغيير في حرفيته أو طريقة كتابته*.

بقيت مسألـة الصـوائت غير محلولـة لغاية القرن الخامس الذي تم فيه حل هذه المشكلة بشكل مقنع، اقتفت أثره فيما بعد اللغة السريانية ثم اللغة العربية. وكان الحل يتمثل بالأخذ بنظام التنقيط أي ضبط الحركات اللازمة للأحـرف الصـامتـة. وهكـذا لم يغير النص شكله الأصلي وتحققت الرغبة في التأكد من النطق السليم في الوقت نفسه.

---

* ـ قام أوريجـين بوضـع ترجمـة مؤلفـة من ستة أعمدة. في الأول منها النص العبري الذي اعتمـده مجمـع جامنيـا في القـرن الأول الميـلادي وهـو الـذي وصلنـا عن طريق العلماء المسّوريين، وفي الثاني النص العبري مكتوباً بحروف يونانية، وفي الأعمدة الأربعة الباقية وضع الترجمات اليونانية السابقة عليه.

سلك كتّاب الأفيستا طريقاً مشابهة إذ كانت التعاليم الزرادشتية بدورها مكتوبة باللغة الآرامية، وذلك ربما منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وحسب معلوماتنا، فان الكلمات الأفيستية واسماء العلم الواردة فيها لم تحفل بالصوائت او انها خلت منها بشكل مطلق. كانوا يستخدمون احياناً «عمد القراءة» ولكن ليس بشكل مطّرد. و«الاسكندر المقدوني» هو الذي قام بالخطوة الأولى: كان لا يمكن لعقله الكبير الذي كان يخطط لدمج المقدونيين مع الإيرانيين، أي الشعب الأرستوقراطي الحديث مع الشعب القديم، ليجعل منهما شعباً أرستوقراطياً ثالثاً، كان لا يمكن له أن يمر بأكبر ظاهرة إيرانية دون الانتباه اليها؛ انها تعاليم «زرادشت» التي كان لا بدّ من مراعاته اثناء عملية تكوين الشعب الجديد، وكان لا بدّ من نشر الكتب الزرادشتية على نطاق واسع. فأمر «الاسكندر» بكتابة النصوص المقدسة بالأبجدية اليونانية وفرض على الجنود الإيرانيين الجدد الذين كان ينوي ضمهم الى جيشه تعلم الأبجدية اليونانية.

وهكذا كرر «الاسكندر» تجربة التوراة التي جرت محاولة كتابتها بالأبجدية اليونانية قبل ذلك بفترة قصيرة. لقد دعت الظروف نفسها في كلتا الحالتين إلى هذا الإجراء، اذ ان لغة الأفيستا ايضاً كانت على وشك الاختفاء من الحياة العادية ولم تكن تستخدم إلا في الطقوس الدينية.. بهذا كان «الاسكندر» قد بدأ مشروعاً ضخماً تطلب كتابة مليوني آية أفيستية بالأحرف اليونانية. والحق ان مثل هذا المشروع لم يخططه إلا عبقري ولم يستطع تنفيذه إلا حاكم العالم. إلا ان المشروع لم يكمل بعد وفاته وانما نقلت المادة الموجودة إلى مكتبة الاسكندرية. ومع ذلك فقد تركت هذه المحاولة آثارها الكبيرة، حتى اننا نعثر على قطع نقدية لاحدى الأسر الحاكمة في ايران الشرقية في القرن الثاني من العصر القيصري وعليها اسماء آلهة الديانة الزرادشتية، وهي مكتوبة بالأحرف اليونانية المتطابقة مع النطق. بالاضافة

إلى ذلك عثرت البعثة برئاسة «ج . ت .لوكوك» (A. V. LE Coqs) في تورفان على بقايا مخطوطات عائدة إلى القرن العاشر وعليها نصوص بلهجة من لهجات شرق إيران ولكنها مكتوبة بالخط اليوناني .

وكما لم يدم هذا التجديد بالنسبة للعهد القديم كذلك لم يستمر بالنسبة للكتب الأفيستية . والسبب في ذلك ان محاولات التجديد هذه حصلت في عالم كان لكل ديانة فيه ، بل لكل طائفة دينية ، كتابها الخاص بها الذي كانت تتمسك به ـ مثل المانويين والمانديين[١٠] واليعاقبة[١١] والنساطرة[١٢] وقبائل السُغْد[١٣] المسيحية والماوية والبوذية ـ ولم يستطع الزرادشتي المتدين أن يتخلى عن خطه الخاص لصالح الخط اليوناني . ان المكتوب كان مقدساً ، ولم يغير من هذه الحقيقة أي امتياز مهما كان .

في هذه الحالة ايضاً بقيت مسألة الأحرف الصائتة بحاجة إلى حل سريع ، لأن العبادة الزرادشتية كانت تصر ايضاً على كتابة نصوصها المقدسة بدقة . فجاءت الخطوة الثانية متفقة هي ايضاً مع ما لاحظناه في اللغة العبرية من ادخال «عمد القراءة» أي الأحرف الصائتة التي كانت تساعد القائمين بقراءة ـ أو تلاوة ـ الأناشيد والتراتيل والصلوات الأفيستية . ولقد مضى أصحاب الأفيستا بهذه الطريقة إلى ابعد ما ذهب اليه كاتب لفافة اشعياء الوثائقية حتى اننا نجد في النصوص الأفيستية المدوَّنة في أواخر عصر

---

١٠ ـ المانديون : طائفة دينية تقوم بتعميد أتباعها ، لاتزال موجودة حتى اليوم في منطقة الفرات الأسفل .

١١ ـ اليعاقبة : طائفة دينية نسبة إلى يعقوب البردعي (٥٤١ ـ ٥٧٨م) .

١٢ ـ النساطرة : أتباع نسطور بطريق القسطنطينية (٣٨٠ ـ ٤٥١م) أسسوا كنيسة المونوفيزيين السريان .

١٣ ـ السُغْد : قبيلة في ايران الشمالية (بخارى وسمرقند) كانت لها علاقات تجارية تمتد إلى الصين .

الأرساكيد[14] تعبيراً عن معظم الصوائت تقريباً، وعلى الأقل، اشارة إلى النطق بالصوائت المدغمة.

هنا ايضاً لم ينته الأمر عند هذا الحد، اذ ان الأحرف الصائتة قدمت بعض المساعدة، ولكنها لم تضمن الدقة المطلوبة لكتابة النصوص المقدسة. واخيراً في أواخر القرن الثاني للميلاد وجد الحل في شرق إيران حيث ابتكرت الأبجدية الصوتية المحافظة على شكل الخط الآرامي والمستندة إلى مبدأ الخط اليوناني. ولما شرعت الأسرة الساسانية الأولى في جمع كتابات الأفيستا كانت هذه الأبجدية قد اكتملت.

المسيحية والكلاسيكية القديمة

عند هذه النقطة علينا ان نوسع دائرة دراستنا مرة اخرى، اذ لم يكن المانويون والزرادشتيون واليهود وحدهم مهتمين بتدوين كتبهم وتحديد نصها الصحيح. فكما اشرنا إلى ذلك كان العالم القديم كله يتأهب لتنفيذ مشروع من هذا النوع.

والحقيقة ان الكنيسة المسيحية كانت أول الأمر لا تتعجل بتأليف كتاب كنسي. صحيح انهم كانوا يميزون بين الأناجيل ورسائل الرسل ومجموعات كلمات الرب وأسفار الرؤيا وفقاً لقيمتها ومكانتها ولكن هذا التمييز كان لا يحمل طابعاً إلزامياً. كان «مرقيون» (Markion) (ولد حوالي عام ٨٥م) أول من قام بفرز المقبول من غير المقبول. ولما تحولت الكنيسة عن «مرقيون» كان لا بدّ لها من مواجهة مشروعه بمشرع خاص بها. يمكننا تحديد بدايات وضع

---

١٤ ـ الأرساكيد: أسرة بارثية حاكمة في ايران منذ ٢٣٠ق.م.

كتـاب كنيسي بأواخـر القرن الثاني للميلاد. ومن مراحله ذلك العمل الجزئي الذي عثر عليه «موراتوري»[١٥] (Muratori)، والكتاب المقدس المرتبط باسم «مومسن» (Mommsen)، وآخر تابع لـ «كلاروMونتانوس» (Claromontanus) وكـذلـك «هـوميليـات» «أوريجينس» (حوالي عام (١٨٤ ـ ٢٥٢م) التي تعني شرح نصـوص الكتـاب بشكـل مواعـظ. وهكـذا تدريجيـاً خرج «كتـاب» المسيحيين: «العهد الجديد» إلى الحياة.

انتهت قصـة تأليف الكتـاب المقـدس المعقـدة بين القـرنـين الـرابـع والخـامس فقـط. وقـد كانت الكنيسة اصلاً تستبعد ضم كل من الرسالة إلى «العـبرانيـين» ورؤيـا «يـوحنـا» ورسالة «بطرس» الثانية ورسالتي «يعقوب» و «يهـوذا» إلى نصـوص الكتـاب المقدس. فقد الحقت به فيما بعد. وبالمقابل لم تستبعـد رسـالـة «بـرنابا» ورسالتا «كليمنت» الأولى والثانية وكتاب «الراعي» لـ «هرماس» ورؤيا «بطرس» وتعاليم التلاميذ ثم وثائق «بولص» إلا تدريجياً. أما الأسفار السبعة والعشرون المعترف بها حتى اليوم فلقد جمعها «أثناسيوس» (Athanasios) لأول مرّة في رسالة عيد الفصح عام ٣٦٣م.

علاوة على ذلـك كانت الكنيسـة بحـاجـة إلى نص العهـد القـديم الصحيح. غير ان اليهود كانوا لا يملكون ترجمة يونانية متفق عليها ومعتمدة على الأصل العبري إلا للتوراة[١٦]، فكان لا بدّ من تأليف مثل هذا الكتاب أولاً. ان مخطـوطـات «السبعـونيـة»[١٧] (Septuaguinta) التي بين أيدينا، هي

---

١٥ ـ ل. أ. موراتـوري: (عـام ١٦٧٢ ـ ١٧٥٠م) اكتشف كتـابات العهد الجديد بشكله الكنيسي الأول.

١٦ ـ عدد الأسفـار في العهـد القـديم تسعـة وثـلاثون سفراً ويطلق اسم التوراة على كتب موسى الخمسة فقط وهي: التكوين، والخروج، واللاويون، والعدد، والتثنية.

١٧ ـ سبتـواغنتـا: تعني سبعـين باللغـة اللاتينية، وهي تسمية ترجمة العهد القديم اليونانية نسبة إلى عدد المترجمين والتي أنجزت في الاسكندرية بين عامي ٣٠٠ ق.م ـ ١٠٠م.

احدى الترجمات السارية التي بدأت الكنيسة الأخذ بها نحو أواخر القرن الثاني. بهذه الطريقة أصبح للعهد القديم أيضاً نص كنسي باللغة اليونانية، لأن اللغة العبرية لم تكن بعد قد حظيت باهتمام كبير (ما عدا من جهة «أوريجينس» و«هيرونيموس». بالاضافة إلى أسفار العهد القديم المثبتة عند اليهود، ضمت الكنيسة النصوص التي رفضها اليهود لأنها كانت مكتوبة باللغة اليونانية (مثل اسفار المكابيين أو ملحقات سفر أستير) أو النصوص المترجمة التي ضاع أصلها العبري (منها أمثال يشوع بن سيراخ). ان نصوص العهد القديم هذه، التي رفضها اليهود على الرغم من كونها نصوصاً يهودية الأصل، قد حافظت عليها الكنيسة من الضياع بضمها إلى الكتاب الكنسي.

واستمدت هذه المجموعة تسميتها من المترجمين السبعين (كان عددهم في الحقيقة اثنين وسبعين) الذين قاموا أصلاً بترجمة نسخة من التوراة (يقال انها تعود إلى عهد «بطليموس الثاني فيلادلفوس» Ptolemäus) II. Philadelphos (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م).

أصبحت اللغات التي تم احياؤها اوتطورت إلى لغات ادبية، لا سيما بفضل استخدام الكنيسة لها، تلعب دوراً هاماً منذ هذه المرحلة، ومن بين هذه اللغات لهجة الرها (Edessa) التي تطورت إلى اللغة السريانية، ولهجات آرامية شرقية اخرى كتبت بها كتب المانديين المقدسة ومؤلفات «ماني» الأصلية وترجمات اليهود في المنفى الشرقي، كما انعكست على الكتابات الرمزية في اللغة الفارسية الوسطى. وتليها اللغة الإثيوبية والأرمنية، وفي فترات متأخرة اللهجات الإيبيرية[١٨]، ثم اللغة القبطية بشكل خاص.

وقد عثر أول ما عثر على ترجمة قبطية لكتاب المانويين المقدس في حي

---

١٨ ـ اللهجات الإيبيرية عائلة لغوية في إقليم جرجان الفارسي.

المعـادي بالقـاهـرة. ثم تم اكتشاف ثان لملفّات بردية عليها نصوص غنوصية تعـود إلى نصف القـرن الثـالث وبـدايـة القرن الرابع الميلاديين. ويدل هذا الاكتشـــاف على ان طائفـــة دينيـــة جديدة كانت قد شعرت بضـرورة جمع النصـــوص المـوجـودة في «كتـاب» خاص بها[19]. واشـترك في هذا المشـروع الغنـوصيـون المقيمـون في مصـر العليـا امثال «الأوفيت» (Ophiten) و«طائفة باربيلو الغنــوصيــة» و«الشيثيـون» (Sethianer). وظهـرت أبحـاث لم تكن معـــروفـــة حتى الآن إلا من خلال مؤلفـات «أفلوطـين» (Plotin)، ٢٠٤ - ٢٧٠م، ومن بينهـا رؤى «زوسـتر يـانـوس» (Zostrianos) و«ألـوجـين» (Alogenes) (أو «ميسوس» Mesos) والإنجيل المصري أو «حكمة يسوع المسيح».

وتقـودنـا إلى مصـر ايضـاً مجموعة الكتابات الهرمسية التي تم جمعها في أواخـر القـرن الثـالث الميلادي. يمثل في هذه الكتابات الإله «توت»، الذي سوّى اليـونـان بينـه وبـين إلههم «هـرمس»، نبيـاً أو رسولاً أنزل عليه الوحي الإلهي. كما اننـا نجـد فيهـا خليطاً من آراء «أفلاطون» و«أرسطو» والرواقيين والأفـلاطـونيين المحدثين بالإضافة إلى بعض الأفكار اليهودية والإيرانية. أما وجـود جماعـة من عبّـاد «هـرمس» فغـير مؤكـد، واذا كان هنـاك حديث عن الأسـرار فان المقصـود بها اسرار الكلمة لا أسرار الطقوس. ويجدر بنا ان نشير ولو إشارة عابرة إلى مجموعات مشابهة مثل «السيبليّات»[20] (التي كانت أجزاء منها يهودية الأصل) أو النبوءات الكلدانية.

---

١٩ ـ عثـر على هذه النصـوص في موقـع نجع حمادي بمصر العليا. وهي تضم إلى جانب النصوص الغنوصية عدداً من الأناجيل المنحولة. وتعرف اليوم باسم مكتبة نجع حمادي ـ المراجع.

٢٠ ـ السيبيليّات: نبوءات نسبة إلى «سيبيل» عرّافة روما القديمة.

كان الأفلاطونيون المحدثون يلعبون دوراً خاصاً، وكان لهم أيضاً كتابهم كما سنرى. وفي الوقت نفسه اخذوا يشنون حملات هجوم ضد الديانات الأخرى منها الغنوصية والزرادشتية والمانوية والمسيحية. والواقع ان تلك الحملات تكشف عن اهمية الأحداث التي مرّت بنا حتى الآن.

وكان معلمهم «أفلوطين» أول من ناصب العداء بكتاباته، ومنها بحثه المحفوظ الذي ردّ به على الغنوصيين بين عامي ٢٦٢ ـ ٢٦٩م وهي الفترة التي مكث فيها عنده «فورفوريوس»[٢١] (Porphyrios). ثم ترك لتلاميذه متابعة الحملة، فوجه «أميليوس» (Amelios) أربعين كتاباً ضد «زوستريانوس» كما ان «فورفوريوس» كشف، ان احد اسفار الرؤيا المنسوب إلى «زرادشت» كان تزويراً حديث العهد. وألف «الاسكندر الليكوبوليس» (Alexander v. Lykopolis) كتاباً صغيراً ضد المانويين قبل سنة من تحوله إلى المسحية عام ٢٨٠م.

ألف «فورفوريوس» كتابه ضد المسيحيين في النصف الأول من السبعينيات. بعد اطلاعه على أعمال «أوريجينس» وشروحه الدقيقة انقلب بحنق على براعته وأسلوبه الرمزي في التفسير الذي جعل به المسيحيين يقبلون حتى النصوص اليهودية. والحق ان «فورفوريوس» بصفته لغوياً وناقداً كان نداً لخصمه على اقل تقدير. وقد استطاع اثبات تزوير سفر دانيال بحجج لا تزال قائمة إلى يومنا هذا. وبكشفه عن عدم صحة هذا النص سقط بالنسبة له جزء من النصوص المسيحية المثبتة. وكذلك تتبع الرجل بحدة ذكائه نسب المسيح والتناقضات بين انجيل وآخر واعمال الرسل، واخيراً وليس آخراً المفارقات بين بطرس وبولص الذي كان يكن له كراهية خاصة.

---

٢١ ـ فورفوريوس الصوري: انظر الفصل ٧ من هذا الكتاب (ص ١٠٢ ـ ١١٥).

احست الجماعة المسيحية بشدة الهجوم حتى ان «لوقيانوس الأنطـاكي»[٢٢] قـام بنقد أسفار العهد الجديد بهدف الدفاع عنه على ما يبدو. فألغيت في النص كل نقاط الضعف التي كانت موضع نقد «فورفوريوس» .

وبعـد تنقيـح النصـوص وتعديلها اصبحت تشكل اساساً متيناً للدفاع وسمحت باتهـام الخصم ـ وعلى ما يظهـر بكـل ثقـة ـ بعـدم صحة قراءته أو باساءته تفسير النصوص.

وكما اشرنا سابقاً لم يقصر الأفلاطونيون المحدثون نشاطهم على النقد، اذ انهم رأوا تعـاليمهم على مستـوى الديانات الكبر ى وحددوا موقفهم على هذا الأسـاس. ومن ثم وضعـوا «كتـابهم» الخـاص بهم في وجـه كتب تلك الجماعات التي ناصبتهم العداء. غير ان أعمال «أفلوطين»، التي قام بجمعها «أوستـوخيـوس» (Eustochios) الـرفيق المخلص الـذي لم يفـارق معلمه وهو يعيش آخـر ساعـات حيـاتـه، لم تصل إلينا. وقد مرت ثلاثون عاماً على وفاة «أفلوطـين» عنـدمـا حقق «فورفوريوس» النص المثبت تنفيذاً لطلب المرحوم. وهكذا نري ان كبر ى الشخصيات كانوا يلبون مقتضيات ذلك القر ن، وشأن «أفلوطين» في ذلك شأن «ماني» مهما كانت الهوة بينهما كبيرة.

اتبـع «فـروفـوريـوس» في ترتيب نصوص «أفلوطين» بدلاً من الترتيب الزمني نظاماً معيناً نستشف من خلاله الهدف الذي كان يرمي إليه. والحقيقة انـه كان في عمله هذا يحتـذي مثال «أندرونيكوس» (Andronikos) الذي كان قد نظّم تركـة الـفيلسـوفـين «أرسطـو» (Aristoteles) و«ثيـوفـراست» (Theophrastos) بالطـريقـة نفسهـا. كان عدد أبحـاث «أفلوطـين» خمسـة وأربعـين نصـاً جمعهـا «فـروفـوريـوس» في سـتـة كتب، وفي كل منهـا تسعـة

---

٢٢ ـ لقيـانـوس الأنطاكي: مؤسس مدرسة أنطاكيا اللاهوتية. مات شهيداً عام ٣٣١م في نيقوديميا. ٢٣ ـ ماكروب: مؤلف لاتيني، عاش حوالي عام ٤٠٠م

نصوص وقد عبر «فروفوريوس» بنفسه عن تفاؤله باجتماع العددين «ست» و «تسع» باعتبارهما عددين مقدسين يضمنان نجاحهذا العمل وسلامته. ثم اضاف إلى هذه المجموعة من النصوص سيرة معلمه مراعياً فيها ايضاً متطلبات العصر الدينية.

اضاءة حركة التدوين

تحولت ديانات العالم القديم إلى ديانات «كتب» خلال القرن الثالث الميلادي، وهو تاريخ يشمل المتقدم والمتأخر عنه وفقاً لتحديد زمني سابق. ولكن ذلك لا يغير شيئاً في النتيجة. انها حركة تعم كافة الديانات على اختلاف انواعها أو تاريخ نشأتها. هكذا نجد ديانات حديثة إلى جانب الديانات القديمة وديانات عالمية إلى جانب ديانات تقتصر على شعب معين. كانت الديانة اليهودية والزرادشتية تعودان بتاريخهما إلى ما يزيد عن ألف سنة إلى الوراء، ثم شهدتا النهضة نفسها التي شهدتها تعاليم «أفلاطون». وبالمقابل كان عمر المسيحية والغنوصية والمانوية لا يزيد على قرنين أو كانت وليدة عصرها مثل الحركة الهرمسية التي ربما لم تنشأ قبل القرن الأول الميلادي.

بقي ان نفسر هذه الحركة بما فيها من اشارات ورموز تاريخية عائدة إلى احداث واقعية. وقد يفسر احدنا ظاهرة جمع الوثائق الدينية بتعدد الديانات والتنافس بينها مما أدّى إلى تميّز كل دين عن الديانات الأخرى بابراز خصائصه وجوهره. ولو كان الأمر كذلك لكانت حركة الجمع والتدوين عملية يمكن ان تجري مبدئياً في كل زمان ومكان. وعندئذ لم تكن هذه الحركة اكثر من دليل تاريخي جديد على موقف نفسي معقول وشفاف.

يعـارض هذا الـرأي انه في هذه الحال كان يكفي تحديد جوهر العقيدة بصيغـة مقتضبـة كما حدث ذلك في القرن الرابع الميلادي فعلاً. ولكن حركة الجمـع والتـدوين هذه كانت من نوع آخـر، اذ كانت لا تركـز على الحـاضـر فحسب بل كانت ترمي إلى ضم تراث ماض كبـير وجعله قانـونـاً. وقـد بذل جهـد كبـير في سبيل جمع وثائق كانت مهددة بالضياع. غير ان الهدف لم يكن الحفـاظ فقـط وانما ابراز العناصر الجوهرية وابعاد الأمور الثانوية. اذاً، لم يكن ايجاد الصيغة ولا الحفاظ على التراث هدفاً في حد ذاته، وانما تثبيت القانون بحرفيته، ويمكننا التأكد من صحة هذا الرأي اذا ما نظرنا أيضاً إلى ما حدث في الغرب اللاتيني ولا سيما روما.

ان حركـة مشـابهـة قد نشأت في رومـا رغم عدم وجود كتابات مقدسة ومشـابهـة لما قدمـه الشـرق بمجمـوعـاتـه. لذا انكب الـرومـان على احياء كلاسيكيـات الأدب الـرومـاني. فابتـدأت «دراسة الأدب الجليلة» على حد تعبير «ماكروب» (Macrob).

بظهـور القيـاصرة الإلليريين بدءاً من النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي دخل مفهوم الحضارة الرومانية مرحلة حاسمة. وقام هؤلاء القياصرة المحـاربـون القـادمـون من البلدان الـواقعـة جنـوب نهر الـدانـوب بتجـديد الامـبراطـورية التي أوشكت على الانهيار بسبب هجمات أعدائها في الداخل والخارج. ولكن حتى تكون النهضة شاملة ومقنعة قبل كل شيء، كان لا بد من امتدادها إلى حياة روما الفكرية.

وحقيقـة الأمـر ان القيـاصـرة الإلليريين كانوا عاجزين عن القيام بهذا العمـل. ولـربـما لم يدركـوا ـ لارتبـاطهم الشـديد بأحداث الساعة ـ ضرورة النهضـة الفكـرية. ومع ان النهضة تمت في ظل الامبراطورية الموحدة على يد الإلليريين، إلاّ انهم لم يكونوا اصحاب الحركة، وانما اشراف مجلس الشيوخ الـذين منعهم «غـاليّـانوس» (Gallienus) (٢٥٣ ـ ٢٦٨م) من تولي مناصب

القيادة في الجيش، ومواطنو مدينة روما هم الذين دفعوا بها إلى الأمام.

كان الرأي السائد ان النهضة لم تبدأ إلا بعد انتقال المركز القيصري إلى آسيا الصغرى وتعيين القسطنطينية عاصمة جديدة (٣٣٠م). غير ان هذا الرأي لم يثبت أمام الحقائق. لقد تبين ان مجموعات «بلاوتس»[٢٤] (Plautus)، و«تيرنس»[٢٥] (Terenz)، و«هوراتيوس»[٢٦] (Horatius)، و«أوفيد»[٢٧] (Ovid)، و«جوفينال»[٢٨] (Juvenal)، ثم مؤلفات «طاقيطس»[٢٩] (Tacitus) التاريخية الضخمة، كل هذه النصوص المحفوظة في المخطوطات الموثوقة التي تعود بتاريخها إلى أواخر القرن الثالث. وتكشف نصوص «بلاوتس» عن كونها منقولة عن مخطوطات نجت من الضياع خلال العقود العاصفة، فاستخدمت لعدم وجود نسخ أفضل. وكذلك اعتمد نص «ليفيوس» (Livius) في جزئه المنجز قبل تطبيق قرارات النقد الأخلاقي التي اتخذت في مدينة فيرونا (Veroneser Palimpsest)[٣٠] على مخطوطة (لا تمتاز بالجودة) قد نجت من الكارثة. ويتضح من ذلك ان الشغل الشاغل في كل مكان كان الحفاظ على النصوص واعادتها.

كانت حركة التدوين في روما مثل تدوين نصوص الأفيستا ونصوص

---

٢٤ ـ بلاوتس، تيتس ماكيوس: ٢٥٠ ـ ١٨٤ق.م، شاعر روماني اشتهر بالملاهي التي استمدها من الأدب اليوناني.

٢٥ ـ تيرنس، بوبليوس: ١٨٥/١٩٥ ـ ١٥٩ق.م، شاعر روماني من أصل ليبي، ألف الملاهي على غرار اليونان. من اشهر اعماله «الخصي».

٢٦ ـ هوراتيوس: ٦٥ ـ ٨ ق.م، شاعر روماني، نظم القصائد على غرار اليونان.

٢٧ ـ أوفيد: ٤٣ ـ حوالي ١٨م، شاعر روماني، صاحب كتاب «التحولات» المعروف.

٢٨ ـ جوفينال، ديسيمس يونيوس: ٦٠ ـ ١٢٧م، أديب روماني تناول في مؤلفاته الساخرة تدني روما الأخلاقي في عصر «دوميتيان».

٢٩ ـ طاقيطس: ٥٥ ـ ١٢٠م، مؤرخ روماني.

٣٠ ـ امحاء النص الاصلي وكتابة نص جديد محله.

العهـد القـديم المثبتة تشكل الأساس لنهضة قومية . وقد رافق النشاط الأدبي الذي قام به أشراف مدينة روما ، محاربة المسيحية لصالح ديانة روما الموروثة . ومن هذا المنطق تتفق في الجـوهـر «دراسـة الأدب الجليلة» (Sacrum studium litterarum) مع نشاطات الجمع الأخرى في ذلك القرن . ولكن النقطة الأكثر بروزاً تتركز حول الحفاظ على أعلام الماضي الفكرية من الضياع الذي كانت مهـددة به . وبـالفعـل نجـح اشـراف مجلس الشيـوخ في انقـاذ مؤلفـات الكـلاسيكيـين الرومان عبر عهود تحركات الشعوب ومرحلة القرون الوسطى المظلمـة ، حتى بدأت في عصـر «شـارلمان» سلسلة جديدة من النهضات التي وصلت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ذروتها .

لم تكن الامبراطورية الرومانية الدولة الوحيدة التي حلّت بها الأزمة ثم آلت إلى الانهيـار ، ففي مملكـة «السـاسـانيـين» الإيرانية ودولة سلالة «هان» الصينيـة المتأخـرة ، تحركت إلى جانب الـدولـة القـديمـة والمتجمـدة شعوب دخلت مسـرح التـاريـخ لأول مرة . وكـانـت شعـوبـاً فتيـة ونشطة وسرعان ما تحولت إلى أعـداء خطـيرين . ولقـد استمدت قوتها من قدرتها الجديدة على التحـرك . كان منبـع هذه القـدرة كتـائب الفـرسـان التي حلت محل المشـاة المسلحين بالأسلحة الثقيلة الذين كانت تتميز بهم الجيوش الرومانية ، وكذلك محل العـربـات الحـربيـة والجنـود التـابعـين لها على طريقة القتال المعروفة في الصـين القـديمة . وقد اصبح الفرسان بدروعهم السميكة وبالقوس كسلاح وحيد ، القوة الفاصلة في المعارك .

في وجه هذا الخطر المحدق اتخذت الاجراءات لتشكيل كتائب فرسان مماثلة . وبـالاضـافة إلى تقليد العدو عاود الرومان التفكير في الطبيعة الخاصة بالانسان المستقر في المدينة أو الريف . واتضح ان خطوط الدفاع الطويلة عند حدود الامـبراطـوريـة اصبحت غير كافيـة للحماية . فقد تمكن العدو المرة تلو الأخـرى من الاقتحـام واكتسـاح معسكرات الحدود متقدماً إلى داخل البلاد

سالباً ناهباً. لذلك تم تعزيز القوات الدفاعية عند الحدود حيث اقيمت مناطق محصنة بمنشآت متفرعة على مساحات طويلة في كل من بريطانيا وافريقيا الشمالية ونهر الراين والدانوب والفرات. وكان الهدف من ذلك إقامة حدود مغلقة للحماية من عدو متحرك بسرعة كبيرة.

وكان الوضع على الصعيد الفكري مشابهاً للوضع العسكري. في القرن الثالث كان تسيطر على الحياة الأدبية الرواية اليونانية المتأخرة، التي بفضل شكلها المفتوح استمرت في الحياة واصبحت وريثة الأنواع الأدبية الكلاسيكية المحددة الملامح، المغلقة. وفي نفس القرن بدأ العالم يقف موقفاً معادياً من سيطرة الرواية وما كان يرافقها من انحلال الشكل، ومهما اختلفت الآراء فقد اتفقت على وجوب ابتكار شكل جديد ذي ملامح محددة. عند ذاك احييت الآثار المنسية ذات الملامح الكلاسيكية التي تعود بتاريخها إلى ألف سنة مضت. ولم يكن المرغوب فيه غنى الإبداع الفردي وانما المحدد والمقيد ذا الشكل الهندسي والمنتظم في ظاهره. ومن هذا المنطق اعيدت الفروسية والمبارزة والمصير البطولي إلى منزلة رفيعة بدأ يعبر عنها الشعر بروح فروسية. هكذا وقف إلى جانب العالم الكلاسيكي القديم عالم الفروسية حتى بمدلوله المثالي الذي انطبق على الجميع، كملحمة القوط وأناشيد المغنين الغرامانتيين[٣١] المقيمين على حواف الصحارى ورموز الفنلانديين وأمثال الهون بكلماتها المتلاحقة المبتدئة بنفس الحزف. وهناك الكتابات العربية المنقوشة التي تشكل البذرة الأولى للقصيدة العربية التي تميزت بالقدرة على التعبير عن عالم خيالي أوسع في حين ما زالت ذات شكل مقيد بقواعد صارمة.

---

٣١ ـ قبائل الغرامانت هاجرت منذ القرن الثاني الميلادي من الفزان (ليبية) إلى غرب السودان. أصحاب اغنية «عود غاسير» التي دونها «ل. فروبينيوس» (Frobenius).

ومرة اخرى احس عالم قديم بخطر الضياع، فسارع إلى تحديد معالمه وحمايتها. وقد دارت الأحداث في هذه المرة على الصعيد الفكري أي الصعيد الديني في فترة متأخرة. وكانت الوسيلة المستعملة جمع الوثائق الخاصة ثم الحفاظ على تراث الماضي المتبقي، الذي كان ذا شأنٍ، بتدوينه في الكتاب. وحتى في الحالات التي كانت المسألة فيها تتعلق بانتاج العصر - كما هو الحال عند «ماني» و«أفلوطين» - كان الهدف تحويله إلى شيء ثابت وقانوني. وهكذا ادركت الكل - ماضياً كان أم حاضراً - روح متجمدة. كان الدفاع والمحافظة يوجهان كل تصرف، فسارت الأحداث على الصعيدين العسكري والفكري في طريق متواز. ونستنتج من كل هذا ان ذلك كان نهاية عصر وبداية عصر جديد: عصر الانتقال إلى العصور الوسطى.

بدأنا هذا الفصل بالوقائع التاريخية، التي ألحقنا بها التفسير الذي اتضح من خلاله أن ظهور «الكتب» وجمعها المتزامنين يشكلان رمزاً تاريخياً. والحق ان القرن الثالث الميلادي الذي شهد أزمة العالم القديم وتدهوره قد لعب دوره على الصعيد الفكري ايضاً.

الفصل الرابع

الرواية: هيليودور الحمصي

كان «هيليوس الحمصي» إلهاً عربي الأصل، وكانت عبادة «شَمْش» منتشرة في شبه الجزيرة العربية لا سيما في المناطق الوسطى والشمالية. وكان إلهاً عظيماً عند البدو وله منزلته في الأماكن المقدسة التي كانوا يحجون إليها لتقديم القرابين. بعبارة اخرى: ان الإله وطقوسه نشأت في حضن قبائل فتية لم تدخل بعد مسرح التاريخ إلا في حالات نادرة. ومن الطبيعي انهم لم يملكوا بعد كتابات مقدسة يرجع سلطانها إلى تقليد عريق. ان العبادة كلها كانت لا تزال في مرحلة التطور فليس فيها متجمد ولا ثابت حتى يصير «كتاباً».

على الرغم من ذلك كان لا يمكن لدين وحتى لدين شعب ناشىء أن يتجنب الكتاب، اذا ما أراد ان يؤثر في العالم اليوناني - الروماني لينال اعترافه به. وبالفعل كان التبشير بالدين مستحيلاً دون الكلمة والكتاب، أو من غير نشاط أدبي. فكان لا بد من الدخول في حلبة التنافس مع عالم الكتب الذي تبلورت فيه الديانات الكلاسيكية المتأخرة. أوَلم يكن المانويون والأفلاطونيون المحدثون (الذين كانوا اصغر ممثلي تلك الديانات، وعلى نحو ما معاصرين لارتقاء حمص)، هم ايضاً مضطرين إلى وضع كتاب خاص بهم؟!

وفي حالة عدم وجود كتب يمكن الاعتماد عليها لا بد من تدوين كتب جديدة. وبدلاً من الإشارة إلى ماض عريق وجب الاستفادة من الامكانيات المتوفرة في الحاضر. فحلت محل الموروث المقدس وإثبات حرفية النص، الكلمة الحرة والحية شاهدةً ومفسرةً وداعيةً، ومسكوبة في تلك الأشكال التي

ما زالت موجودة من التراث الأدبي الفني.

وفي مقـدمـة تلك الكتب الجـديـدة «الأيثيوبيكا» بقلـم «هيليودور» (Heliodor) المـواطن الحمصي. لا تتمتـع هذه الـروايـة العـائـدة إلى القـرن الثـالث الميـلادي[1] اليـوم بالتقـديـر الـذي كان لها في عصر النهضة والباروك (١٥٨٠ - ١٧٦٠م). والحق ان كلاً من «رافـائيـل» (Raffael) و«تـاسـو» (Tasso) و«سيرفانت» (Servantes) و«كالديرون» (Calderon) و«شيكسبير» (Shakespear) و«راسـين» (Racine) قد اعجبـوا بها، كما ان الفنـان «أمبـواز دومـاس» (Amboise Dumas) رسم مشـاهـد مستمـدة من هذه الـرواية على جدران حجرتين في «فونتينبلو» بأمر من «هنري الرابع» (Henri IV). أما جيل عصـرنـا فكـان عليـه ان يتعلم فقه معاني هذا الكتاب أولاً، وقد سمح تحديد تاريخه الذي كان موضع نقاش حتى في فترة متأخرة بفهم الرواية انطلاقاً من ظروفها التايخية.

دور إله الشمس

تدور احـداث الـروايـة في مصـر وفي ايثيـوبيـا الواقعة عند حدود مصر الجنـوبيـة. وتنقلنا البداية إلى الـ «بوكوليا» وهي منطقة المستنقعات في الشمال الغربي لدلتا النيل. كانت هذه المنطقة في حيز نفوذ دولة البوكول الباغية التي تأسست هنـاك منـذ أواخر القرن الثاني الميلادي، وقد جلبت هذه الدولة عام ١٧٢م حملة نكال رومانية على نفسها، غير أن الرومان لم ينجحوا في قمعها. ومن ناحية اخرى أثار شعب البوكول وحياته الاجتماعية العجيبة اهتمام الرواية

---

١ - ترجمها إلى اللغة الألمانية «ر. رايمر» (R. Reymer) مع كلمة الختام بقلم «أو فاينرايخ» (O. Weinreich) عام ١٩٥٠م.

الكـــلاسيكيـــة في وقت مبكـــر. ومن هؤلاء الـــروائيـــين «اكسينـوفـون»[٢] (Xenophon) الذي عرّف هذه الجماعة في كتابه «قصص أفسوسية» و «آخيل تاتيـوس»[٣] (Achilles Tatios) الـذي لم يفتـه هذا الموضوع الخلاب. ثم وقف «هـيليـودور» في صفهـــا، ولا يخفى عن النظـــر أنـــه قد اطلع على ماكتبـــه «اكسينـوفـون». غير ان هذه البوكوليا الهيليودورية ومصر وإثيوبيا تتميز بغطاء من الملامـح ذات أصل آخر. وكما أزاحت في التطور الدينـي الآلهةُ السورية الآلهـة المصـريـة عن منـزلتهـا وحلت محلهـا، كذلـك تغطي في هذه الـرواية تصورات سورية عالم وادي النيل.

في نهايـة الـروايـة يسمي المؤلف نفســه رجـلاً فينيقياً من مدينة حمص ينتسب إلى أسرة «هيليوس». ويجب ان نأخذ هذه الشهادة بعين الاعتبار لأنها تقف في وجـــه نسب الـــروايـــة إلى أسقف مسيحي بهذا الاسم من العصـر البيـزنطي. والـواقع ان القيصر «جوليان» (Julian) (٣٦١ ـ ٣٦٣م) قد عرف رواية الأيثيوبيكا. والمهم ان «هيليودور» لم يكن مسيحياً بدليل أن الرواية كلها حافلة بذكـر الإلـه هيليـوس الحمصي الكبير. انه الله بشكل مطلق أو بتعبير الرواية «أجمل الآلهة كلها».

تعود هذه الرواية إلى زمن كان الإله الحمصي معروفاً لدى القارىء، وهو القرن الثالث الميلادي. غير ان هناك نقطة هامة تستوجب الإشارة إليها وهي أن الـروايـة لا تقـول في أي موضـع بأن هيليوس هو الإله الحمصي. انه مجرد استنتـاج من إشـارة المؤلف في نهايـة الرواية انه مواطن حمصي منتم إلى أسرة هيليوس. أما فيما عدا ذلك فالرواية تسعى إلى عدم ربط الإله بمكان معين.

---

٢ ـ اكسينوفون الأفسوسي: روائي يوناني تعود كتبه ربما إلى القرن الثاني الميلادي.

٣ ـ آخيل تاتيوس: روائي يوناني برز بنشاطه الأدبي في ثمانينيات القرن الثاني الميلادي.

وتؤكـد ما ذهبنا إليه، علاقة الإله مع آلهة اخرى. أولاً يتطابق «هيليوس» مع «أبولو»[4] اليوناني (بخصائصه المعروفة في معبده الرئيسي في «دلفي») في جوهرهما، إذ يتنبأ هذا الأخير للعاشقين «تياغينس» (Theagenes) و«كاريكلايا» (Charikleia) برحيلهما إلى بلد «هيليوس» الأسود. ولما تحققت النبوءة وانتهى سفرهما الهائم الى بلاد الإثيوبيين نسمع «كاريكليس» (Charikles) الكاهن الدلفي يقول كلمته المهمة بالمساواة بين «هيليوس» الإيثيوبي والإله اليوناني. وتعاد هذه الكلمة إلى الأذهان عند اعطاء الزوجين شارات «هيليوس» و«سيلين»[5] (Selene) الكهنوتية. ويمثل «أبولو» بشكل عام الإله الذي ترفع إليه الصلوات طلباً للعون، لأنه و «هيليوس» مجتمعين يعتبران سيدي القدر. وتكشف احداث الرواية على أنها تدبير إلهي عائد إلى هذين الإلهين.

ان اليونان في نظر «هيليودور» بلاد الجمال والأحلام التي يذكرها «تياغينس» و«كاريكلايا» ورفيقهما «كنيمون» (Knemon) وحتى كاهن ممفيس «كالازيريس» (Kalasiris) بحنان وشوق وهم على ضفة النيل. ولكن احداث الرواية لا تدور إلا على أرض مصر وإيثيوبيا. وتتشابك الأمور على المستوى الإنساني والمستوى الإلهي على حد سواء، بحيث ينتسب «هوميروس» (Homer) في الواقع إلى المصريين من جهة أبيه الإله «توت ـ هرمس»[6] (Toth- Hermes) بدليل شعره الكثيف على فخذيه، و«كاريكلايا» الحسناء، كاهنة الإلهة «أرتيميس»[7] ما هي في الحقيقة إلا أميرة مصرية. ان

---

٤ ـ أبولو: إله يوناني، ابن زيوس، كبير الآلهة، وليتو. كان إله النور والفنون الجميلة.

٥ ـ سيلين: إلهة قمرية يونانية.

٦ ـ توت: إله العلوم والآداب والزمن في مصر القديمة. (المترجمة).

هرمس: إله المسكن والمواشي والتجارة ورسول الآلهة عند اليونان.

٧ ـ أرتيميس: إلهة الصيد العذراء عند اليونان.

«هرمس» إله يوناني ولكنه يمثل أيضاً الإله «توت» المصري. ولا يختلف الأمر فيما يتعلق بالإلهتين «أرتيميس» و«إيزيس»[٨]. وقد تم تساوي «إيزيس» مع كل من «ديمتر»[٩] (Demeter) و«أفروديت»[١٠] (Aphrodite) و«هيرا»[١١] (Hera) و«سيميل» (Semele) و«إيو»[١٣] (Yo) و«تيخه»[١٤] (Tyche) في وقت سابق على «هيليودور». وكذلك كانت متساوية مع «أستارت»[١٥] الفينيقية (Astarte) و«عترغاتيس»[١٦] السورية (Atargatis) و«أنايتيس»[١٧] (Anaitis) الإيرانية. وعلاوة على ذلك وحّد النشيد الأندروسي المرفوع إلى «إيزيس» بينها وبين «مايا» (Maia)، والدة «بوذا». أما «هيليودور» فأضاف إلى هذه السلسلة الإلهة «أرتيميس».

و«أرتيميس» هي أخت الإله «أبولو» أما «كاريكلايا» ربيبة «كاريكليس»، كاهن الإله «أبولو»، فهي كاهنة الإلة «أرتيميس». ترتدي «كاريكلايا» رداء كاهنات الإلهة وتحمل الأسلحة الخاصة بها. وذات مرّة يسمي «تياغينس» نفسه كاهن «أبولو» كما يسمي «كاريكلايا» كاهنة الإلهة

---

٨ ـ إيزيس: إلهة مصرية زوجة أوزيريس.

٩ ـ ديمتر: إلهة الزراعة عند اليونان.

١٠ ـ أفوديت: إلهة الحب عند اليونان.

١١ ـ هيرا: إلهة يونانية وزوجة زيوس.

١٢ ـ سيميل: إلهة الأرض من أصل طراقي ـ فريجي.

١٣ ـ إيو: إبنة الملك «إيناخوس وكاهنة الإلهة «هيرا».

١٤ ـ تيخه: إلهة القدر عند اليونان.

١٥ ـ أستارت: إلهة الحب والخصب عند الفينيقيين.

١٦ ـ عترغاتيس: الإلهة الأم عند السوريين.

١٧ ـ أنايتيس: الالهة الأم عند الفرس.

لمزيد من المعلومات عن الوحدة الكامنة وراء تلك الإلهات راجع فراس السواح «لغز عشتار».

«أرتيميس» الأفسوسية . وعلى الرغم من ان الزواج محرم عليها بصفتها كاهنة الإلهة العذراء، تبشرها نبوءة «أبولو» بالزواج من «تياغينس» عن طريق رؤيا يظهر لها فيها «أبولو» و«أرتيميس» اللذيان يأخذان بيدي العاشقين.

وتمتد شبكة العلاقات إلى ابعد من ذلك . فبما ان «كاريكلايا» أميرة من أصل إيثيوبي فهي تتحلى إذن بخصائص الإلهة«إيزيس» . وفي معبد الإلهة «إيزيس» في أسوان يريد مبعوث الملك الإيثيوبي أن يكشف للرجل الذي سيكون مربي «كاريكلايا» عن سرها . ويُذكر معبد «إيزيس» مرّة اخرى في مدينة ممفيس حيث تُطالَب «كاريكلايا» برفع الشارة الكهنوتية قبل ان توافق على الزواج من «تيامیس» (Thyamis) . هكذا توحد البطلة في شخصيتها الإلهتين «إيزيس» و «أرتيميس» حتى لتحتار جماعة البوكول الباغية في أمرها ، ترى أهي كاهنة الإلهة المصرية أوكاهنة الإلهة اليونانية؟ ام انها احدى الإلهتين بالذات؟ كذلك يظن الأيثيوبيون ان «كاريكلايا» في ردائها الدلفي تمثل إلهة .

يضاف إلى ذلك أن «كالازيريس» ، كاهن الإلهة «إيزيس» و «كاريكلس» ، كاهن الإله «أبولو» ، يلعبان أحياناً نفس الدور ، فكلاهما ، الكاهن المصري في ممفيس والكاهن اليوناني ، مربيان يرعيان مصير ربيبتهما ، وكلاهما يعلمان قدرة «الإله» الذي يعبدانه ويبشران به . والمهم أن «هيليودور» الحمصي يستغل علاقة «أبولو» مع «أرتيميس» وتساوي كليهما مع «هيليوس» و «إيزيس» ليتقدم خطوة اخرى ويظهر إلهه المحلي إلهاً شاملاً .

ومن الآلهة المصرية الأخرى التي يشير إليها «هيليودور» الإلهان «أوزيريس»[١٨] و «هوروس»[١٩] بينما لا يذكر الإله الأعلى «سيرابيس» . ولعل

---

١٨ ـ أوزيريس : إله الخصب وحاكم الموتى عند المصريين .

١٩ ـ هوروس : إبن الإله «أوزيريس» والإلهة «إيزيس» .

السبب ان «هيليوس» الذي تأهب ليصبح إلهاً كونياً، لم يتسع له المكان إلى جانب الإله الكوني ذي النشأة اليونانية ـ المصرية. ولذلك لم يذكر «سيرابيس»؛ وربما افترض «هيليودور» أن قارئه سوف يرى في «هيليوس» شكلاً من أشكال «سيرابيس» لأن التساوي بينهما كان ظاهرة عامة في ديانة العصر القيصري.

يؤكد هذا، الصورة التي رأيناها حتى الآن حيث تطغى في ديانة «هيليودور» التصورات السورية على التصورات المصرية التي يفرضها المكان. واذا صح قولنا عن سبب عدم ذكر «سيرابيس» لكان معنى ذلك ان التصورات السورية قد بدأت بإزاحة المعتقدات المصرية.

في إيثيوبيا يشكل «هيليوس» و «سيلين» مع «ديونيسوس» الثالوث الإلهي المعبود في «مروى»، والآلهة الثلاث هذه موروثة من أقدم العصور، وهي التي تقام لها حفلة النصر الكبير. وفي هذا الثالوث يحتل الإله «هيليوس» والإلهة «سيلين» مكانة خاصة لكونهما أنقى الآلهة وأروعها. والمرأة الوحيدة التي تشارك في طقس تقديم القرابين لهما هي كاهنة الإلهة «سيلين». وينتصب محرابا الإلهين جنباً إلى جنب بينما ينفرد محراب «ديونيسوس» الذي تقدم له قرابين حيوانية من شتى الأنواع بلا تمييز، بخلاف «هيليوس» الذي يحصل على أربعة ثيران و«سيلين» التي يقدم لها ثوران. علاوة على ذلك يجب أن تكون الضحايا البشرية التي تقدم لهذين الإلهين الممثلين للشمس والقمر عذارى لا ريب في عذريتهم، وهو طلب لا يشترط في الضحايا التي تقدم لـ «ديونيسوس».

تتطابق صورة «هيليوس» الإثيوبي مع صورة «هيليوس» الأصلي و «أبولو». وتقف إلى جواره «سيلين» التي تربطها الروابط المعروفة بكلتا الإلهتين «إيزيس» و«أرتيميس». ويعني اسم «إيزيس» أرض مصر الخصبة وكانت الإلهة بالنسبة لجماعة المطلعين على أسرارها تمثل الأرض، واسم

الفـلاح «إيـزياس الخميسي» مشتق من اسم الإلهة. وتظهر هذه العلاقة عند «سيلين» ايضـاً لأنهـا تمثـل القمر الذي يدور حول الأرض. وكان الإيثيوبيون يقدمون الثيران قرباناً لها لأن هذا الحيوان يساعد الإنسان في فلاحة الأرض. ولا يختلف الأمر مع «أرتيميس» الذي تلمع كاهنتها «كاريكلايا» لمعان القمر بين النجـوم. وعنـدمـا تخرج «كـاريكـلايا» من معبد إلهتها تركب عربة يجرها ثوران أبيضان وهو ما يتفق مع طبيعة القربان الذي كان الإيثيوبيون يقدمونه لـ «سيلين».

ونستخلص من كل هذا أن الإله «هيليوس» كان في هذه الرواية السيد والإلـه المطلق، كما اشـار اليـه المؤلف الحمصي الذي بذل كل جهده ليوسع دائـرة نفـوذ إله وطنه. وهكذا يسود «هيليوس» حياة الإيثيوبيين كما انه يتحول إلى الإلـه «أبـولـو» الـدلفي، فتفقد مدينة حمص إلهها إلى حد ما. وكما لكل بعـل بعلتـه كذلك لإله الشمس رفيقته التي تسمى في اليونان «أرتيميس» وفي مصـر «إيـزيس» وفي إيثيوبيا «سيلين». والحقيقة ان الديانات السورية كانت منـذ القـديم تميـل إلى التـوسـع وتطمـح في الانتقـال من العبادة المحلية إلى العبادة العالمية، وكان الهدف المنشود نصب الإله الأوحد والشامل الذي تكون الشمس أعلى تجلياته. ويتضح من خلال رواية «هيليودور» كيف استعد رب حمص ليتحول إلى إله عالمي.

ولعـل طريقـة عرض هذه الفكـرة تستحق أكـبر نصيب من الاهتمام. فمن الـواضـح ان لدى المؤلف افكاراً جديدة وأصيلة، ولكنه لا يقولها بشكل مباشر. ولا تذكر الرواية مدينة حمص على الإطلاق، بل تتحدث عن «الإله» وعن سلطـان «هيليوس» أو «أبولو» وأهميتهما. وهما الإلهان اللذان يركز عليهما كل الاهتمام. وأكثر من مرّة يرفـع الـدعاء إلى الإله الإيثيوبي بصفته الأب الأول، وهـو دعـاء على الطـريقـة الحمصيـة. ان الجملة الأخيرة فقط تقدم الحـل، حيث يشكـل اسم «هيليوس» مقطعاً من اسم المؤلف. أما اسم أبيه

«ثيودوسيوس» (Theodosis) فيدل على الإله بشكل عام، ونظراً إلى أن الأب والإبن من نسب واحـد فالإلـه المقصـود هو الإلـه «هيليـوس». وأين نشأ «هيليـوس» هذا؟ لقـد نشأ في مدينـة حمص موطن السلالة الشمسية وموطن «هيليودور» بالذات.

الوضع التاريخي

بالاضـافـة إلى اله الشمس، كان «هيليودور» يهتم بالتنجيم أيضاً، اذ ان العبـادة الشمسيـة والعلم بقـوة الكواكب المسيطرة على الكون متناسبان. وكان التنجيم معروفاً في سورية بما فيها مدينة حمص منذ وقت مبكر. وكثيراً ما يتحدث «هيليودور» عن مشيئة الـ «مـوريا»[٢٠] أو تدابيرها وكذلك عن قوى القدر. ورغم ان اسلوب الرواية من الناحيتين اللغوية والمعنوية يبدو مستمداً من عالم الخيال اليوناني، إلا انه يفشي من خلال جمل تسمي الأشياء بأسمائها عن ما وراءهـا من ايـمان راسـخ بالكواكب، حيث نقرأ ان مجرى الكواكب هو الـذي يحدد مصـير الإنســان الحتمي. هنـا ايضاً يكمن مضمون شرقي تحت الشكل اليوناني.

وبشكـل عام لا يمكن تجاهـل تأثـير البيئة السورية في الرواية. فهناك مثلاً التجار الفينيقيون الذين ينقلون البضائع الهندية والإيثيوبية والمحلية إلى بلاد الغرب، وهنا تاجر في مدينة صور يبيع الحرير الصيني. وقد اكدت صحة هذه المعلومـات الاكتشـافـات التي تمت في القبـور التـدمرية التى وجدت فيها أقمشـة حريـريـة تعـود إلى عصـر أسرة «هان»، والخط التجاري بين البحر

---

٢٠ ـ الموريـا: إلهات القدر الثلاث عند اليونان. راجع فراس السواح: لغز عشتار، فصل «عشتار سيدة الأسرار».

الأحمر ومصب نهر الهندوس الـذي اقامه تجار تدمر الذين كانت لهم علاقات تجارية مع بلدان بعيدة.

والذي يثير الاهتمام حقاً هو ذكر اسم «هرقل» الفينيقي الذي انتشرت عبادتـه في مدينـة صور، ثم انتقلت إلى المستعمـرات الصـوريـة وكل مكان وصـل إليـه الصـوريـون في أسفارهم. وكان الفينيقيون المسافرون إلى مدينة قرطـاجـة يقـدمون فيها قرباناً للإله «هرقل» الذي كان يحتل الصدارة بعد ان أصـدر القيصـر «سبتيموس سيفير وس» الأوامر بنقله ونقل الإله «ديونيسوس» من موطنه «لبسيس ماغنا» إلى روما.

كان «ديـونيسـوس» ايضـاً يشغـل مكـانة خاصة في الثالوث الإيثيوبي الـروائي كإلـه ثالث إلى جانب «هيليـوس» و«سيلين»، وهـو امر يعود بنا مرّة اخـرى إلى التصـورات السـائـدة في وطن «هيليـودور». وكـما رأينا فقد زوّج «إيـلاجبـال» الحجـر الحمصي المقـدس من إلهة قرطاجة التي يقول عنها احد المؤرخـين في ذلـك العصـر «ان اسمهـا لدى الإفـريقيـين «أورانيـا» ولـدى الفينيقيـين «عشـتر وت» وانها تمثل القمر». ويقارن نفس المؤرخ «إيلاجبال» الشاب لجماله ونعومة جسمه مع الإله «ديونيسوس». وباعتقادنا ان الجمع هنا بين الشمس والقمـر و«ديـونيسـوس»، أي العنـاصر التي يتألف منها الثالوث الإيثيـوبي، ليس من باب الصـدفـة. فالـواقع أن عبادة «ديونيسوس» كانت منتشرة في مناطق كثيرة في سورية حيث تتطابق مع عبادة إله محلي اقدم.

ينبغي ان نعود إلى ذكر اسرة «السيفير يين» التي كانت أمها الأولى من أصل حمصي، لأن سورية والإله الحمصي بشكل خاص كانا محط الأنظار في الزمن الذي تدور فيه احداث رواية «هيليودور». ولكننا بحاجة إلى مزيد من التفصيلات.

منـذ دخـول «جـوليـا دومنا» مسرح الأحداث العالمية اصبح إله المدينة السـوريـة وكهنتـه يلعبـون دوراً هامـاً فيهـا. وتؤكـد ذلك صُورة «هيليوس» من

الموجودة على النقوش العائدة إلى عهد القيصرين «سبتيموس سيفيروس» و «كاراكّلا» وعلى قوس النصر في مدينة «لبسيس ماغنا». غير أن «إيلاجبال» هو الذي حمل العبادة الحمصية إلى عظمتها. ثم حصل الانتكاس بوفاة الكاهن القيصري الذي كان قد فشل في سعيه لأن يجعل إلهه الإله الأعلى.. ولا تلبث مدينة حمص ان تعيّن إلى جانب القيصر الشرعي قيصراً مضاداً يدعمه الجيش السوري الذي أيّد «إيلاجبال» من قبل. وبعد فترة حكم «فيليب العربي» (٢٤٨/ ٢٤٩م) يبدو ان المدينة قد أعلنت عن مرشح جديد باسم «إيوتابيانوس» (Iotapianus) الذي جاء بعده (٢٥٣ ـ ٢٥٤م) «لوسيوس جوليوس سوبليسيوس أورانيوس أنطونيوس (LUcius Julius Suplicius Uranius Antonius) كمرشح ثالث. ويقال ان القيصر «غاليانوس» (Gallienus) (٢٥٣ ـ ٢٦٨م) قام بترميم هيكل إله الشمس في حمص، كما أن معظم الحكام التابعين له جعلوا يسكّون القطع النقدية التي تحمل صورة «هيليوس». وبفضل «أورليان» عاد الإله أخيراً إلى ذروة عظمته.

تمتد هذه الأحداث على مدى أكثر من نصف قرن من التاريخ، فأين موقع «هيليودور» في هذه الفترة؟ هنا نستطيع ان نستند إلى اشارات من التاريخ: يظهر أن «هيليودور» كان لا يعرف خطر «البلمين»[21] (Blemmyer) المحدق بروما، مما نستنتج انه ألّف روايته قبل النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. ولكنه كان على علم بكتائب الفرسان المدرعين التي شكلها الساسانيون واصطدمت بها روما لأول مرّة في الحرب التي خاضها «سيفيروس الاسكندر» (Severus Alexander) ضد الفرس عام ٢٣٢ ـ ٢٣٣م. وبناء على ذلك نستطيع تحديد الفترة الزمنية التي كتبت خلالها الرواية.

---

٢١ ـ البلميون: قبيلة بدوية كانت تعيش على تخوم الامبراطورية الرومانية فوق أسوان في المنطقة بين نهر النيل والبحر الأحمر.

ونخـــرج من هذا التحـــديـــد الـزمني بالنتيجـة الحـاسمـة ، وهي ان «هيليودور» كتب روايته بعد حكم «إيلاجبال» وفشل المحاولة في تنصيب الإله الحمصي إلهـاً أولاً للامـبراطـوريـة ، وتخلُص روما من القيصر وإلهه . واذا ما اردنا ان نفهم «هيليودور» ، فيجب ان ننطلق من هذا الواقع . والحق ان هناك فرقاً كبيراً بين صورة العبادة الشمسية التي ترسمها الرواية وتلك الصورة التي كانت عليها في عهد «إيلاجبال» .

كان الحجـر المقـدس «بيتاً» للإله ومكاناً لعبادته . وبما أن الحجر والإله متلازمان ، كانت حمص مسكن الإله ما دام الحجر موجوداً فيها ، وعندما نقل هذا الصنم إلى روما اصبحت هي مسكن الإله . وفي منتصف الصيف نقل الحجـر في موكب رسمي إلى معبد ثانٍ شيد خارج اسوار المدينة . ثم كان لهذا الإله عدد كبير من الزوجات اللواتي تزوج منهن الواحدة تلو الأخرى ، وكان على روما وايطاليا كلها ان تحتفل بهذه الأعراس في احتفالات رسمية .

وعندما نقارن هذه الصورة مع الصورة التي رسمها «هيليودور» ، يظهر لنـا الفـرق منـذ البـدايـة . كان «هيليـوس» لا يرتبط بمكان معين ، تماماً مثل الشمس بالـذات ، وكـان لا يسكن في حجـر مقـدس ولا يتـزوج من امـرأة ليضـاجعهـا . اجـل ، لقد جعل «هيليودور» ايضاً إلهة قمرية تقف إلى جانب الإلـه الإيثيـوبي ، ولكن الـروايـة لا تقـول انها زوجة له . ويظهر الإله والإلهة «أنقى الآلهـة وأروعهـا» بخلاف «ديونيسوس» الذي لا يتصف بهذه الصفات المطلقـة والـذي قورن به «إيـلاجبـال» . وفضـلاً عن ذلـك قُـرنت «سيلين» بـ «أرتيميس» الإلهـة العـذراء واخت «أبـولـو» . وقـد جرت العـادة ألا تقـدم للإلهـين الممثلين للشمس والقمـر الا الضحايا العذارى . كما كان للإلهين ان يختارا لخدمتهما كاهنةً وكاهناً عذريين مثل «تياغينس» و «كاريكلايا» .

كان تقـديم الضحـايـا البشـرية قرباناً للآلهة ، من الطقوس المألوفة في سورية ، واعتبر كالبغاء المقدس تقليداً مقدساً قديماً قدم الدهر . وقد انتشرت

اشاعة مفادها ان «إيلاجبال» واهل بيته كانوا ايضاً يمارسون مثل هذه الطقوس. وهي نقطة اخرى يختلف فيها «هيليودور» عن التقاليد، لإلغائه تلك العادة وتشريعه قانون جديد.

يمثل «سيزيميترس» (Sisimitres) في الرواية رئيس السوفسطائيين العرايا الذين انتسبوا إلى المجوس، والزاهدين الهنود الذين كانوا يمارسون طقوسهم عرايا. وفي الوقت نفسه يمثل «سيزيميترس» الحليف الثالث إلى جانب «كالازيرس» و«كاريكلس» فيبشر هو الآخر بالإله «هيليوس» العظيم ومشيئته. واذا كان «كاريكلس» هو الذي أتى بالبطلة إلى ديلفي، فان «سيزيميترس» هو الذي سلّم إياه هذه الأميرة الإيثيوبية المتروكة. وعندما يموت «كلازيرس» يتولى «سيزيميترس» حماية العشيقين ويخرج بهما من الضلال إلى النهاية السعيدة. ويشترك مع «كاريكلس» في موكب النصر الذي تنتهي به الرواية. ولكن قبل ذلك يقوم بعمله الحاسم الذي يسبب التحول في مجرى الأحداث.

لقد رفض «سيزيميترس» مشاهدة ذبح «تياغينس». و«كاريكلايا» اللذين اختارهما الإيثيوبيون ضحيتين ليقدموهما قربانين للإلهين «هيليوس» و «سيلين» بمناسبة احتفال الانتصار. وينسحب السوفسطائيون إلى داخل المعبد ليتحاشوا مشاهدة ذبح الضحيتين البشريتين لأنه في رأيهم قربان غير شرعي، وحتى الإلهين أنفسهما سوف يستنكرانه. ولم يخطىء «سيزيميترس» بموقفه، اذ تظهر «كاريكلايا» ملفعةً بهالة من الأشعة دلالةً على أنها تحت الرعاية الإلهية. ومثلها ينال «تياغينس» حريته، لأن الإلهين يرفضان هذا القربان. ويؤكد «سيزيميترس» أن ما حدث هو تعبير عن المشيئة الإلهية التي لا يجرؤ احد على معارضتها. وهكذا تلغى عادة تقديم القرابين البشرية القديمة، ويتم تعيين «تياغينس» كاهناً لـ «هيليوس» و«كاريكلايا» كاهنة لـ «سيلين». وبهذا فتح الباب إلى شكل أنقى من أشكال العبادة.

كانت المحـاولـة التي قام بها «إيـلاجبـال» المتعصب لإلهـه، تصـرّفـاً صبيـانيـاً. وكـان طمـوحه الوحيد، حتى وهو على عرش القيصر، ان يكون كاهن ربّه السماوي لا غير، وقد جعل صورته المضخمة في زي الكاهن تسبقه إلى رومـا طالبـاً ان يقـدم لها النـاس تحية الإجلال. وبعد استلامه السلطة، تصـرف بشكـل متهور ودون مراعاة شعور العالم المختلف عن عالمه، اذ ادخل في رومـا الطقـوس السـورية بشكلها الأصلي الخالص، فكانت المشاهد كلها سورية وجماعة كاهنة الإله وعباده كلهم من السوريين.

أما آلهة روما ورموزها فوضعت في خدمة الإله الجديد، الأمر الذي رأى فيـه أهـل رومـا الـوطنيـون احتقـاراً لمقـدساتهم. كان «إيلاجبال» يتصور إله الشمس سيـداً ذا قدرة مطلقـة لا بد من أن يخدمـه جميـع الآلهـة، وان يخلي «جـوبيـتر» الأعلى له المكـان. غير ان هذا التصرف أثار رد فعل عنيف عند المعارضة التي اطاحت بالقيصر وإلهه معاً. وكان لا يمكن لخليفة «إيلاجبال» ان يتجـرأ على الاستمـرار في ممارسـة طقوس إله وطنه على الرغم من انتسابه إلى نفس الأسرة الحمصية.

كان اهـل حمص متعصبـين لهذا الإلـه، ولم يشكـوا لحظـة في قدرتـه ومستقبله. ويؤكـد ذلـك تعيينهم سلسلة من المـرشحـين لعرش القيصر على الـرغم من دورهم العـابـر في مجرى الأحـداث، كما تؤكـده ايضـاً روايـة «هيليـودور» التي، من ناحيـة اخرى، يتبين من خلالها الحرص الشديد على مراعـاة شعـور الآخـرين. وهكذا بدأت، إلى جانب المحاولات الهادفة إلى استعادة العرش، الدعاية عن طريق الأدب. إلا ان الدعاية الأدبية لم تقصد العالم الروماني بعد التجربة الفاشلة فيه، بل اقتصرت في البداية على البلدان الشـرقيـة النـاطقة باللغة اليونانية. فـ «هيليودور» لم يذكر في روايته لا روما ولا إيطـاليـا ولو مرّة واحدة، كما اننا نلتقي فيها بالآلهة اليونانية والسورية والمصرية والإيثيوبية ولكننا لا نصادف إلهاً رومانياً. وقد ظهر «هيليوس» في ثوب جديد

حتى يناسب ذوق اليونان والشرقيين في آن واحد. فقط حافظ الإله على جوهره ولكنه خرج عن دائرة المجون الشرقي واصبح في مستوى واحد مع انقى الآلهة وأروعها في أعلى الأوليمب.

لقد حقق «هيليودور» للإله السوري التحول إلى إله عالمي، وبذلك اصبح «هيليوس» الجديد يحتل مرتبة جديدة في مراتب عالم الآلهة. كلا، حتى «هيليودور» لم يتنازل عن حق إلهه في المكانة العليا، ولكن هذا الإله لم يعد ذلك المستبد الذي يخلع منافسيه عن العرش لينزلهم إلى رتبة الخدم الذين ينفذون أوامر جلالته، وانما انضم بشكل منطقي إلى النظام القائم.

كان «إيلاجبال» محافظاً على اسم إلهه السوري غير ان التاريخ اطلقه على القيصر نفسه. أما اسم «هيليودور» فمركب من اسم إله الشمس، ولكن الاسمين ـ اسم الإله واسم خادمه ـ ليسا باللغة السورية. ويعني اسم «هيليودور» في اللغة الآرامية «وهب الشمس» وقد ورد هذا الاسم بالخط اليوناني على شكل «Jamsymsos». ولكن مؤلف الرواية الإيثيوبية استغنى عن هذا الشكل واختار بدلاً منه اسماً يونانياً، ويتبين بوضوح، من اسم الإله واسم الإنسان، الفرق الحاصل بين المرحلة الجديدة والمرحلة السابقة التي كانت فيها الأسماء المستعملة في أسرة «ميسا» تستشف أصلها العربي.

لا تذكر الرواية اسم مدينة حمص إلا في النهاية. عندئذ يفاجأ القارىء الذي مال قلبه إلى «هيليوس» لكونه «أنقى الآلهة» وبما سمع عن اعماله وانتشار عبادته إلى بلاد الإيثيوبيين، يفاجأ بان هذا الإله هو في الحقيقة الإله الحمصي. لقد حفظ «هيليودور» هذه المفاجأة لآخر القصة، وهي فعلاً خدعة فنية ماهرة ومؤثرة. ولكنها تدل ايضاً على ما تركه تهور «إيلاجبال» من آثار سلبية دعت إلى تصرف شديد الحذر في سبيل جذب العباد إلى الإله القديم في ثوبه الجديد.

الفصل الخامس

الفلسفة: فورفوريوس (Porphyrios)

ان رواية لا تؤثر في الجماهير، ولا تلقى رواجا، هي عمل قد اخطأ هدفه، ورأينا اليوم في ذلك ربما لا يختلف عن الرأي في العصور القديمة. وتشهد البرديات المكتشفة في مصر على انتشار الرواية الكلاسيكية المتأخرة التي تنتمي إليها رواية «الإيثيوبيكا» بقلم «هيليودور»، من الملفت للنظر ان هذه الرواية كانت لا تؤثر في الجماهير فحسب، بل يبدو ان «هيليودور» استطاع ايضاً ان ينال اعجاب نخبة مفكري عصره. ورأى الفلاسفة بدورهم ان يتناولوا في تأملاتهم إلهاً شمسياً في ثوب جديد.

وبطبيعة الحال كان الموقف الذي وقفه الفلاسفة من الإله، يختلف عن موقف الأديب الذي نشأ في حمص، والذي يشتمل اسمه على اسم ربّه السماوي. وسوف نرى ان نخبة الفلاسفة ايضاً كانت تنتمي إلى الشرق ولا سيما سورية. ولكن هذا الانتماء لم يدفع بهم إلى التبشير بعبادة محلية والدعاية لها، بل الأرجح ان «هيليوس» كان قد وصل إلى مكانة تكاد لا تسمح بتجاهله. وكان لا بد لنظام فلسفي يريد ان يُؤخذ بعين الاعتبار من اعطاء هذا الإله المكانة التي يستحقها.

ومن الواضح ان عمل «هيليودور» قد مهد لهذا الاتجاه، وسوف نرى ان الفلسفة تبنت الفكرة القائلة بان «هيليوس» موجود في كل الآلهة الأخرى، وانه الجوهر الذي تفرعت عنه، وان هناك ما يسوّغ التساوي بينه وبين القوى السماوية الأخرى ورؤية صورته فيها. ولكنْ خلافاً لـ «هيليودور» لم يعط

الفلاسفة «هيليوس» المنزلة العليا بل كان عليه ان يكتفي بالمرتبة الثانية. وقد ادت هذه النقطة إلى نتائج خطيرة ـ بالنسبة لـ «هيليوس» ـ رغم عدم وجود أي مؤشر إلى سوء المصير في بداية الأمر.

أزمة الحياة الفكرية

في حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي هزت الأزمة السياسية والعسكرية كيان الامبراطورية الرومانية والعالم القديم برمته، وتركت بصماتها على التاريخ الفكري. من الديانات القائمة، اخذت المسيحية والزرادشتية تتحولان إلى ديانتين رسميتين، الأولى في الامبراطورية الرومانية والثانية في مملكة الساسانيين. ولكن هذا القرن الخصب والكثير الحركة اضاف إلى الديانات الموجودة ديانتين اخريتين هما الفلسفة الأفلاطونية المحدثة في الغرب وتعاليم «ماني» في الشرق، وقد انبثقتا في نفس الوقت تقريباً من الدولتين العظميين اللتين شكلتا على الرغم من العداوة بينهما «عيني العالم»: روما ومملكة الساسانيين. وكما كانت هتان الدولتان منفصلتين عن بعضهما ومرتبطتين في الوقت نفسه، كذلك كانت الأنظمة التي تولدت عنهما.

وليس التزامن وحده ما كان يربط بين الأفلاطونيين المحدثين والمانويين، وانما شكلت بدورها حركة احياء التراث القديم التي قام بها المانويون رابطة ثانية. فالصراع المستمر ابداً بين الأب العظيم وسيد الظلام الذي يشكل مركز اسطورة «ماني» العالمية، لا يمكن تصوره دون المثال الذي قدمه «زرادشت». ومثل الأفلاطونيين المحدثين رجع المانويون في إيران إلى أعظم تقاليد شعبهم وحضارته وأهمها، في محاولة منهم ان يظهروها في شكل مناسب للعصر.

ومن ناحية اخرى، كانت الأسباب التي وحّدت بينهما هي نفسها التي فصلت بينهما بفروق عميقة. فكانت الثنائية تسيطر على المانوية بقدر ما كان التوحيد الإلهي شرطاً للأفلاطونية المحدثة. طبعاً لم تتخل الأفلاطونية المحدثة عن عالم الآلهة المتعددة الذي شكل التراث اليوناني، ولكنها أفرغته من معناه بإرجاع التعدد إلى الوحدة. وبهذه الطريقة اصبحت «أرتيميس» و «أفروديت»، الإلهتان اللتان كانتا سابقاً تشكلان تناقضين (كما جعلها «يوريفيدس» (Euripides) في مأساته «هيبوليتوس» تصطدمان، لا تعرفان مهادنة ولا مساومة مسببتين الصراع المأساوي)، اصبحتا الآن قوتين وطاقتين للقوة الإلهية الواحدة. وبقدر ما جردت الآلهة القديمة من شكلها وبالتالي من جوهرها الإلهي، نمت اهمية الذي احتواها جميعها في جوهره الشامل والخاص به، ألا وهو إله الشمس. ولكنه هو الآخر لم يكن سوى الصورة المرئية والأداة للواحد الكبير الذي كان فوقه. وهكذا اصبح هرم العالم الإلهي الشديد الارتفاع بكليته، خاضعاً لهذا الواحد الذي كان «فكرة الأشياء الكائنة».

كان «ماني» يكتب باللغة السورية الجديدة على الرغم من انه لم يكن آرامياً وانما ايرانياً. نشأ والده في مدينة همدان في ميديا، ويبدو انه كان ينتمي إلى أسرة «الأرشاقيين» الملكية[1]، على الأقل من جهة والدته التي تأكد انها كانت تنتسب إلى فرع لهذه السلالة.

وكان الافلاطونيون المحدثون أيضاً ينتمون الى دائرة محددة، ومن بينهم «أمونيوس سكّاس» (Ammonius Sakkas) (توفي نحو عام ٢٤٢م) و «أفلاطين» (Plotin) وكلاهما مصريان و«فورفوريوس» (Porphyrios) الفينيقي و «لونجين» (Longinos) (توفي عام ٢٧٣م). و«كلينيكوس» (Kallinikos) و«أميليوس» (Amelios) السوريون، ثم «يامبليخوس»

---

١ ـ أرشاق: أمير من البارثيين أسس سلالة «الأرشاقيين» حوالي عام ٢٥٠ق.م.

(Jamblichos) (في أوائــل القــرن الـرابـع) ذو الاسم العـربي . لا يكفي ان نتحـدث هنـا ، اعتماداً على منشأ هؤلاء الفلاسفة ، عن شرق الامبراطورية الـرومـانيـة إذ لا تدخـل في هذه الـدائـرة آسيـا الصغـرى ولا سيـما كبدوقية (Kappadokia) التي كانت فيـها بعـد موطناً لثلاثة من كبار الوعاظ . وكذلك لا يجمع بينهم الأصل السامي ، ولكن الصحيح ان كل الذين أشرنا إليهم كانوا ينتسبون إلى بلدان اصبحت في وقت لاحق حصناً للمونوفيزية . وقد يكون في هذا القول ما يدعو إلى الاستغراب ، ولكن عندما نتفحص الأمر يتضح لنا أنه يدل على ارتباط جوهري بين هذه الجماعة .

عنـدمـا وافق المجمع الكالكيدوني (Chalkedon) (٣٥١م) على البند الـذي اتفق عليـه الغـرب ، والـذي ورد في مرسوم البابا «ليو الكبير» (٤٤٠ - ٤٦١م) ، أقـرت طبيعتـا المسيـح بعـد تجسيده على الرغم من وحدة الأقنوم . وكـانت جماعـة «ديـوسكـوريا» (على البحر الأسود) والأساقفة المصريون مع بطـريكهم تابعـين لحلف رومـا مع الأسقفيـة القسطنطينية . وقد عرف علم الـلاهوت الاسكندري بسعيه الدؤوب إلى تأكيد طبيعة المسيح الإلهية على حسـاب طبيعتـه الإنسانية . وبشكل تدريجي حصل هذا الرأي على الأولية ، حتى اصبحت الكنيسـة المصـريـة اخـيراً تدافع عن التعليم بالطبيعة الإلهية الـواحـدة ، أي المنـوفيـزية ، وقضى «كيرلّس الاسكندري» (٤١٢ - ٤٤٤م) على كل من قال بانقسـام إبن الله الـواحـد أو بثنـائيتـه بالكفـر . . وجمع هذا المذهـب بين جميع معارضي البند الوارد في مرسوم «ليو» . أما القبول بهذا البند الكالكيدوني فقد ادى إلى الانفصال النهائي عن مصر المونوفيزية ومن بعدها بفترة وجيزة عن سورية .

ومن الـواضـح ان المونوفيزيين قد واصلوا آراء الأفلاطونيين المحدثين في سوريـة ومصـر إذ أن كلا الطـرفـين كان يدافـع عن مبدأ الوحدة الإلهية . وفي الحقيقـة كانـوا لا يرفضون كلياً التعاليم الموجودة سابقاً إذ لم ينبذ الأفلاطونيون

المحـدثـون تعـدد الآلهـة الكـلاسيكية ولم ينف المونوفيزيون وجود الكلمة إلى جانب الآب ، ولكنهم قللوا من قيمة الآراء المتناقضة مع الوحدة وأنزلوها إلى مرتبـة سفلى . وقد وقف الأفلاطونيون المحدثون والمونوفيزيون الموقف نفسه ، واغلب الظن ان ظهـورهم في مصـر وسورية ليس من باب الصدفة . لقد تميز الناس المقيمون في هذه البلدان بسعيهم إلى الوحدة تماماً كما تميز اهل ايران بالثنائية .

وبقي ان نتحـدث عن العـرب . لقـد جاء في وقت متأخر التأكيد على القـرابـة الـداخليـة بين المـونـوفيـزيـة والإسـلام ، واشـير إلى «يـوتيخس» (Eutyches) ، احد آباء التعليم المونوفيزي ممهداً لمحمد . وبالفعل يتفق تطور الـرسـالـة المحمـديـة مع التطـور العام . وكانت دعوة محمد ترتكن على فكرة الـوحـدة وعلى أن الله لا «شـريك» له . وبهذه الفكرة وقف في صف واحد مع أسـلافـه وجـيرانـه الأفـلاطونيين المحدثين والمونوفيزيين مع الفارق ان حماس الـرسـول الـديني قد اعـاد هذه الأفكار والأهداف التي بشّر بها سابقوه بشكل أوضح بكثير .

فورفوريوس

فتح إحيـاء الفلسفـة الأفـلاطـونيـة مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الفكري الكلاسيكي . وتتميز هذه المرحلة بالتحول عن العالم الخارجي الذي بدا أنه لا يقدم سوى تعاقب الأحداث السريع ، والهلاك ، والمادي ، والفناء ، وكـان العـالم الـداخلي وحده والروح بشكل خاص يضمنان الاتصال بالخالد والإلهي الذي لا يتغير .

كان «أفلوطـين» أول من اتجـه هذا الاتجـاه الجـديـد واعطـاه الأساس الفكـري . وهـو لم يحيي الفلسفـة الأفـلاطونية فحسب وانما ألبسها ايضاً ثوب

الناسك الذي اصبح يلازمها. وعلاوة على ذلك استطاع «أفلوطين» ان يعبر عن هذا الشعور الجديد عن الدنيا بصور مؤثرة لا تنسى، مع انه كان ابعد ما يكون عن تدوين معلوماته بشكل سهل يسير. وكان لا بد من التمرين الطويل لمن أراد التعمق في بحوثه المختصرة التي تتميز بطابع التنويه اكثر من التفصيل. لذا كانت الحاجة ملحة إلى رجل آخر إلى جانب «أفلوطين» ليفسر الفلسفة الجديدة بشكل يسمح بتعلمها ويستخلص منها النتائج التي قدمها المعلم نفسه بخطوطها العريضة فقط. وكان هذا الرجل هو «فورفوريوس».

كان اسم صاحبنا هذا، الذي نشأ في مدينة صور الفينيقية «مالخوس». اما اسمه «فورفوريوس»[2] فأطلقه فيما بعد على نفسه في محاولة منه للتعبير عن معنى اسمه المحلي «الملك»، باللغة اليونانية، فاختار هذا الاسم الذي اشتهر به. وكذلك لم يجد «فورفوريوس» اتجاهه الفكري دفعة واحدة، بل كان عليه ان يتخلى عن تصورات سابقة وان يتحرر منها. وكان لقاؤه بـ «أفلوطين» بالذات (٢٦٣م) نقطة الانعطاف في حياته، إذ حمل نفسه، على الرغم من شهرته على الصعيد الأدبي، على النزول إلى منزلة التلميذ ليتتلمذ على يد الذي اعترف له بالتفوق. ولقد عُثر في السنوات الأخيرة على مؤلَّفَين بقلم «فورفوريوس» يعكسان اثر هذا اللقاء ويسمحان بتتبع تحوله هذا بالتفصيل.

تمت استعادة تاريخ فلسفة «فورفوريوس» بفضل ما كتبه «الشهرستاني»[3] عن هذا الموضوع باللغة العربية، وبناء على ذلك تبرز في

---

٢ ـ الاسم «فورفوريوس» مشتق من الكلمة اليونانية «فورفيرا» (Porphyra) التي تعني الأرجوان، وهو اللون الذي كانت تتميز به ملابس الملوك (المترجمة).

٣ ـ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، أبو الفاتح (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م)، مؤلف كتاب «الملل والنحل».

التراث الفلسفي اليوناني جماعة تأسيسية تتألف من سبعة فلاسفة رواد او كما يقال سبعة حكماء. ولا علاقة لهم بالحكماء السبعة الذين يفتتح بهم تاريخ الفكر اليوناني عادة، بل انهم «أعمدة الحكمة»، بدءاً بـ «طاليس الملطي» (Thales V. Milet) (٦٢٤ - ٥٤٤ ق.م) إلى «أنَكْسِمَنـدر» (Anaximander) (٦١٠ - ٥٤٧ق.م) (الذي كثيراً ما خلط بينه وبين «أنكساغوراس» (Anaxagoras) (٥٠٠ - ٤٢٨ق.م) إلى «أنَكسمانس» (Anaximenes) (٥٨٨ - ٥٢٥ق.م) و «فيثاغورس» (Phytagoras) (٥٧٠ - ٤٩٦ / ٤٩٧ق.م) و «أنبادوقليس» (Empedokles) (حوالي ٤٩٤ - ٤٣٤ق.م) ثم إلى «سقراط» (Sokrates) وأخيراً «أفلاطون». ولم يدخل «أرسطو» في هذه الجماعة على الرغم من انه اصبح الفيلسوف المفضل عند «فورفوريوس» في وقت متأخر.

وتحدث «فورفوريوس» عن هذه الجماعة التأسيسية التي جمع بين أفرادها في مؤلفه الكبير المرتب زمنياً. وكان بوضعه هذا الدليل المرجع يستجيب لحاجة العصر (القرون عقب الميلاد) الذي ازدادت فيه حركة تأليف المصنفات الخاصة بالشعراء الكلاسيكيين والخطباء والفلاسفة ومؤلفاتهم، لأنه كان عصراً لم يعد يسمح بدراسة الأدب اليوناني الضخم الحجم كما لم يرغب أحد بذلك مما ادى الى نمو الحاجة إلى مختارات منه. وكان العدد سبعة يلعب دوراً ملحوظاً بصورة عامة.

ولو اقتصر تاريخ «فورفوريوس» الفلسفي على التلخيص فقط، لما كانت له فائدة تعليمية كبيرة، ولما اختلف عن الملخصات الأخرى في جمعه بين تفضيلات السير مرتبة ترتيباً زمنياً والوثائق والمحاسن الموجودة بشكل مبعثر في كتب اخرى. إلا انه تميز عن غيره باضافته دراسة تركة الفلاسفة الأصلية إلى المعلومات العادية، وذلك حتى لأعمال معاصريه «أفلاطون» وأسلافه حيث لم يكن مثل هذا العمل بالأمر البديهي.

ولا شك في أن «فـورفـوريـوس» حفظ في كتابه آثاراً نفيسة بفضل تلك الـدراسـات . ومن ذلك ألغاز سمعها من «سقراط» بالذات على حسب قول «أيشينس السِفتي» (Aishines V. Spettos) (حوالي ٤٣٠ ـ ٣٥٤ق . م)، وهو مع «أفلاطون» و«اكسينوفون» (Xenophone) ثالث الفلاسفة بعد «سقراط» . والحقيقـة ان هذه الألغـاز، اصليـة كانت أم منحولة، تغني معلوماتنا . وهناك اجزاء كتابة فيثاغورية، ثم الأثر الأكبر قيمة الممثل في مقطع طويل من انشودة التـوبـة المفقـودة لـ «أنبادوقليس» (حوالي ٤٩٤ ـ ٤٣٤ق . م) . طبعاً لم يدون «فـورفـوريـوس» نص «أنبـادوقليس» بحرفيته إذ لا يقدم اكثر من فكرة موجزة عن المضمون، لكنها اعتمدت على معرفة جيدة بالقصيدة .

هنـاك ندرك تأثـير «أفلوطـين» في «فـورفـوريوس» . فقد اشار المعلم، الـذي قليـلاً ما اورد الأقـوال المأثـورة في بحـوثـه، مرتـين إلى أنشـودة التوبة لـ «أنبـادوقليس» مما يدل على الأثـر العميق الـذي تركتـه في نفسـه . ثم تأثر «فورفوريوس» بدوره بتعليمات «أفلوطين» حتى اننا نجد الأبيات التي اختارها لـ «أنبـادوقليس» كلهـا تقـريباً مأخوذة من أنشودة التوبة التي ظل يفضلها عن غيرهـا العمـر كله . والحق انـه لا يمكن تصور فلسفته المتعلقة بمسألة الروح ولا دعوته إلى الامتناع عن أكل اللحوم ـ النقطتان الرئيستان في تعليمه ـ لولا وجود المثال الأنبادَوقليسي .

نستخلص من هذا كله ان «فـــورفـــوريـوس» قد انهى كتـابـة تاريـخ الفلسفة وهو ما زال مقيماً في روما بجوار «أفلوطين»، الذي لا يمكن المبالغة في تقدير تأثيره في عقلية تلميذه الذي تميز بالعلم والاطلاع الواسع اكثر من تميزه بالتـوازن، ولم يجد «فـروفـوريـوس» لونـه الخاص به إلا من خلال معاشرة هذا الـرجـل الأكبر منه سناً وشأناً . ويؤكد ذلك ايضاً الكتاب الثاني الذي يتناول نظرية «فورفوريوس» في ألوهية الشمس .

كتاب «فيما يتعلق بالشمس»

هذا الكتـــاب ايضـــاً لم يصـــل إلينـــا في شكله الأصـــلي وانـــما عن طريق «ماكروبيوس (Macrobius) الذي ترجم منه مقاطع طويلة إلى اللغة اللاتينية وضمهـــا إلى الجـــزء الأول من مؤلفـــه «الســـاتورنيات»[4]. وفي هذه النصوص يُطرَح السؤال عن سبب تسمية الشمس تارة باسم «أبولو» وتارة اخرى باسم «ديونيسوس» أو أسماء أخرى. ويعطى الجواب على لسان «فيتيوس أغوريوس بريتيكستـــاتـــوس» (Vettius Agorius Praetextatus) ، وهـــو احـــد السيـــاسيين الرومان في الوثنية المتأخرة الذي يعرض أمام المشتركين في وليمة الساتورنيات فلسفة «فورفوريوس» بشيء من التوسع.

يبـدأ النص بأن الشعـراء يرون أن معظم الآلهـة تعـود في أصلهـا إلى الشمس. وهـذا الـرأي ليس خرافـة بحتـة اذ انه يتطابق مع رأي الفلاسفة، ويؤيـده ايضـاً نظـام العـالم الإلهي. ان اسـماء الآلهـة تعود إلى درجات طاقة الشمس المختلفـة. وهـذه الفكـرة الأسـاسيـة تكاد تكون واحدة عند كل من الشعراء والفلاسفة الذين يقيمون البرهان على التطابق الجوهري بين «أبولو» و«ديـونيسـوس» و«آريـس» و«هرمز» و«أسكليبيوس» و«هيجيا» و«هرقل» و «سيرابيس» و«إيـزيس» من جهـة والشمس من جهـة اخرى. ويشمل هذا

---

٤ ـ السـاتـورنيـات: احتفالات الإله «ساتورن» الروماني الذي كان يمثل إلهاً زراعياً وكان متساوياً مع الإله «كرونوس» اليوناني. (المترجمة).

البرهان على ذلك عدداً من الآلهة الأخرى.

يغلب على عرض «فورفوريوس» الطابع اللّغوي لا الفلسفي. والدليل على ذلك ليس وجود كثرة الأقوال المأثورة التي تشكل العمود الفقري للحجج فحسب، وانما ايضاً تفسير أسماء الآلهة اللغوي الذي يعتمد عليه باسراف. ولا يتردد، على الرغم من كونه مواطناً فينيقياً، عن شرح أسماء آرامية مثل اسم «حدد». وتأخذ صورة الآلهة ورموزها مكانة خاصة في بحثه حيث يقدم وصفاً مفصلاً لها ويفسر دلالاتها الرمزية التي تعني هنا دلالاتها الشمسية. وتظهر إلى جانب صور الآلهة اليونانية والمصرية صور آلهة سورية المنشأ. وفي الوقت نفسه ألف «فورفوريوس» كتابين خاصين بأسماء الآلهة وصورها لاهتمامه الكبير بهذا الموضوع الذي ربما لم يكن دون اهتمامنا نحن به، فضلاً عن نقاط أخرى مشتركة بيننا. وقد رتبت الأسماء والألقاب والطقوس ترتيباً زمنياً بشكل مطرد، كان الهدف منها تقديم البرهان على اقتران تلك الآلهة بالشمس في الجوهر.

ان النصوص المأخوذة من كتاب «فيما يتعلق بالشمس» التي حفظها «ماكروبيوس»، تبين تعمق «فورفوريوس» المبكر في الحقل العلمي الذي اصبح فيما بعد علامة له. ولا يخلو الكتاب من الطابع الفلسفي غير انه لا يغلب عليه، والحقيقة ان اسم «فورفوريوس» سُجِّل في سجل التاريخ الفكري بصفته ناقداً ولغوياً وليس منظماً وفيلسوفاً، الأمر الذي يناسب طريقة عرض حججه في أجزاء كتابه المشار اليه، حيث تشغل الحيز الأكبر شواهد حرفية مستمدة من اقوال الفلاسفة والشعراء وشروح للأسماء.

وهناك مصدر ثان يمدنا بنصوص محفوظة من كتاب «فورفوريوس» وهو الخطبة الرابعة التي ألقاها القيصر «جوليان» (Julianus) الذي أطلق عليه معاصروه والأجيال القادمة في العصور المسيحية لقب «المتردد» (٣٦١ - ٣٦٣م). ألقيت هذه الخطبة تحت عنوان «حول الملك هيليوس»، إلا أن

«جوليان» لم يعتمد على «فورفوريوس» نفسه وانما على الفيلسوف الأفلاطوني المحدث «يامبليخوس» الذي نشأ في مدينة «خالكيس» (قنسرين) فكان مواطن «فورفوريوس» وتلميذه على ما يقال. وضم «يامبليخوس» إلى مؤلفه «فيما يتعلق بالله» الكثير من أفكار «فورفوريوس» التي انتقلت منه إلى خطبة القيصر «جوليان».

ولكن «يامبليخوس» و«فورفوريوس» كانا يختلفان اختلافاً كبيراً على الرغم من كل جهد بذل في سبيل التقارب. لقد كان طعم الحجج اللغوية التي قدمها «فورفوريوس» لا يروق الرجل الأصغر سناً منه. كان «يامبليخوس» كمعظم السوريين الذين اختاروا اليونان وطناً ثانياً لهم، فيلسوفاً او كان يتمنى ان يكون فيلسوفاً. والذي يلفت النظر اننا لا نعثر في خطبة «جوليان» على تفسير لغوي واحد لـ «فورفوريوس»، وأغلب الظن ان «يامبليخوس» كان لا يهتم بهذه الناحية، خلافاً لـ «ماكروبيوس» الذي جذبته الناحية النحوية واللغوية إلى كتاب «فورفوريوس». ويؤكد ذلك الموقفَ الفلسفيَ الذي تميز به المناضلون الأوائل في سبيل الوثنية الكلاسيكية المتأخرة في الشرق الناطق باللغة اليونانية، والموقف اللغوي والنحوي الذي وقفه المحافظ على التراث الأدبي في الغرب.

ولكن مقابلة اللغة والفلسفة، والنحو والميتافيزيقا، أو التراث الأدبي والتفكير المنظم، هذه المقابلة التي تظهر في استخدام اعمال «فورفوريوس»، تطابق مع القسمين اللذين ينقسم إليهما كتاب «فيما يتعلق بالشمس» بالذات: قسم كان يتذرع فيه المؤلف بفن تقديم الحجج اللغوية، وقسم سابق عليه كان يهدف إلى وضع مبدأ فلسفي. وكان هذان القسمان متشابكين في أكثر من موضع، كما ان القسم الثاني اشترط طبعاً وجود القسم الأول، مما يبين ان القسمين المنقولين منفصلين عن بعضهما كانا يوماً ما يشكلان وحدة متكاملة.

نعـود نشعـر بتأثـير «أفلوطين» الشديد في زميله الأصغر سناً منه وتوجيه أفكاره. واذا كان البرهان اللغوي انتاج «فورفوريوس» الأصيل، فإن المبادىء الميتـافيـزيقيـة تشف عن تأثـير المعلم حيث تنتهي إلى النتيجـة المـدهشـة ان «هيليوس» الذي بدا حتى الآن انه اعلى الآلهة التي لم تكن سوى تشخيصات لصفاته، او كما يسميها «فورفوريوس» «قواه» و «طاقاته» المستقلة، تنتهي إلى ان «هيليوس» اصبح الآن خاضعاً لإله أعلى ألا وهو الإله الروحاني المطبوع بالأفلاطونية المحدثة.

ويقـول الـرأي الجـديد «إن هذا الكون الإلهي، بجماله الفائق من قبة السماء في الأعـالي إلى حافـة الأرض، الذي يحافظ عليه الله بتدبيره، موجود منذ الأزل من غير ان يتكون وسيظل موجوداً إلى الأبد». وملك الكون الذي يحيـط به هو «فكـرة الأشياء الكائنة» وهو «الوحيد» او كما يقول «أفلاطون» هو «الخير». وهو الذي ارسل «هيليوس» الذي يشبهه في كل شيء، إلا انه تابع له كمخلوقه، إلى العالم. ان «هيليوس» سيد وملك بأمر من الخير الروحاني الأعلى.

ونقـرأ في موضـع آخـر ان «هيليـوس» وسيـط يقف بين الـواحد الكبير والآلهة الآخرى، وبين العالم الروحاني والعالم المحسوس. ان هناك قوة خالقة أولى من نوعهـا وهي «هيليـوس» وتتبعـه آلهـةأخرى، جوهرها شمسيإيضاً، تمثـل القـوى الخـالقـة بأمر من «هيليوس». ويظهر «هيليوس» مرّة اخرى إلهاً صدر عن الإله الروحاني الواحد «عُيِّن وسيطاً يقف في الوسط ويقوم بكل نوعٍ من التـوسـط». ويمثـل العـدد الكبـير من الآلهـة الخالقة التي تعمل بأمر من «هيليـوس» وتشاركه في طبيعته الشمسية، «قوى هيليوس وطاقاته» المشخصة في تلك الآلهة.

وانعكس هذا المـذهب ايضـاً على الكتـابـات الهرمزية التي ظهرت في مصـر، وقيـل عنهـا انهـا انـزلت من وحي الإله «توت ـ هرمز» المصري. تعود

معظم هذه النصوص المتبقية إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وتحتوي على بعض أفكار ذلك العصر. وفيها يلعب «هيليوس» بشكل خاص دوراً هاماً.

«اذا اردت رؤ ية الله، فكّر في الشمس ودوران القمر ونظام النجوم. فمن هو الذي يحافظ على نظامها... ؟ ان «هيليوس» اعظم الآلهة في السماء، والآلهة السماوية كلها تفسح له المكان كما لملك وحاكم». ولكن مرّة اخرى يظهر تميز الله عن الشمس التي لم تكن سوى صورته المرئية ومثالاً له. صحيح ان «هيليوس» هو ملك الآلهة الأخرى ولكنه منفصل عن الله الواحد. ويقرب «هيليوس» من الله اكثر من قربه من القمر ومع ذلك يظل الثاني بعد الله ومجرد قوة خالقة. او بتعبير آخر ان «هيليوس» مجرد صورة للنظام الكوني منفصل عن الله بعاملي الأبد والكون، وساعة خلق العالم قسمت المادة النارية فتكون منها افراد الآلهة التي نراها نجوماً.

والمهم ان جزء كتاب «فورفوريوس» الذي حفظه «ماكروبيوس»، يشترط وجود جزء أسبق عليه يعالج مكانة إله الشمس في الكون. واذا كان الجزء الثاني قد اثر في ممثلي الوثنية الرومانية المتأخرة أي اولئك الرجال الذين اعتبروا أنفسهم رعاة التراث الأدبي، ورأوا في الاعتناء بالنحو حفظ الموروث من الإنسانية عبر التاريخ، فان الجزء الأول قد اثر في ممثلي الأفلاطونية المحدثة المتأخرين. ولكن لم يختصر تأثيره على هؤلاء بل امتد كما سنرى ـ لعبة غريبة على مسرح التاريخ العالمي ـ إلى «قسطنطين الكبير» (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) الذي تركت فيه هذه الأفكار أثراً حاسماً. ولا يمكن فهم عمله السياسي والديني من غير هذه المقدمات.

الفصل السادس

أورليان

القياصرة الإلليريون

باءت محاولة جعل إله الشمس الحمصي إلهاً للإمبراطورية، بالفشل. ونتيجة لذلك محيت ذكرى القيصر وأعيد حجر إلهه إلى وطنه. وأعطى خلفه «سيفيروس الاسكندر» (Severus Alexander) (٢٢٢ ـ ٢٣٥م) المعبد الذي تركه الإله المعزول لـ «جوبيتر» المنتقم، فخضع رغم انتسابه إلى أسرة «إيلاجبال» للمعارضة الرومانية القومية التي أثبتت قوتها. وكان موقفه من الديانة الرومانية يتناسب مع احترامه المتملق الذي كان تظاهر به أمام مجلس الشيوخ الذي كان أعضاؤه في نفس الوقت من كهنة روما المؤيدين بوعي لممارسة التقاليد الدينية.

كان احد ممثلي هذه الفئة المؤرخ «كاسيوس ديو» (Cassius Dio) (حوالي ١٥٠ ـ ٢٣٠م) وهو أقرب أصدقاء القيصر. وقد ضم إلى مؤلفاته التاريخية كلمة ألقاها «ميسيناس»[1] (Maecenas) أمام القيصر «أوغسطس»، عبرت انطلاقاً من ظروف عصره، عن برنامج سياسي خاص بالمؤلف حذر فيها من

---

١ ـ ١ ـ ميسيناس، غايوس سلينوس: (٧٠ق.م ـ ٨م)، فارس روماني من نبلاء الأتروسكيين، وصديق القيصر «أوغسطس». كان متهكماً خفيف الروح، مشجعاً للفنانين والعلماء. (المترجمة).

الـديـانات الغريبة ودعا إلى التمسك بالعبادة الرومانية الموروثة . وكان «ديو» يرفض «إيــزيس» و«أوزيـريس» ، الإلهـين المصـريـين، و«ديـونيسـوس» و «هرقل» الإلهين الإفريقيين على حد سواء.

كان «سيفـير وس الاسكنـدر» يوفق بين أصله السـوري والشخصيـة الـرومانية المتصنعة بطريقة خاصة . في «لاراريوم»[٢] بلاطه (Lararium) وضع صور قيـاصـرة رومـا الـذين كانـوا ارتفعوا إلى منزلة الآلهة وصورة «الاسكندر الكبـير» ، إلى جانب صور اعظم اصحـاب الـدعـوات ، امثـال «أبولونيوس الطـيــاني» (Apolonius V. Tyana) (القــرن الأول الميــلادي) و«المسيــح» و «ابـراهيم الخليـل» و«أورفيـوس» . وابـدت أم القيصـر من ناحيتهـا ميلاً إلى الـدين المسيحي بدليـل أنهـا دعت معلم الكنيسة «أوريجينس» ، الذي اصبح ينتــزع نصــراً بعــد نصــر، إلى مقــرهـــا في انطـاكيـا ، كما انهـا سمحت لـ «هيبـوليتـوس» الـرومي (Hippolytos) أن يهدي لها بحثـاً يعـالـج موضـوع الخلود. ومـع ذلـك لم يقصِّر القيصر في حق الديانة الرومانية وماضي الرومان القديم، حتى انه جعل صورته تنقش على القطع النقدية وهو في ثوب كاهن الإلهة «روما» الخالدة.

وبعبـادته للإلهة «روما» ، سلك القيصر «سيفير وس الاسكندر» طريقاً تبعـه فيهـا «فيليب العـربي» (٢٤٤ ـ ٢٤٩م) ، خضـوعـاً لسلطـة المعـارضة القومية التي عادت تقف في وجه المواطن الشرقي . أما ميوله الشخصية فكانت تتجـه أيضـاً إلى جهـة اخـرى بدليـل التسـامـح الـودي الـذي ابداه للدين المسيحي ، فضـلاً عن امـور كثـيرة اخـرى . ولكنه بصفته رئيس الدولة انقاد للمتطلبـات الـرومـانيـة . وصــادف ان وقـع على عاتق القيصر العربي المولد اعداد الاحتفالات للعيد الألفي لمدينة روما في عام ٢٤٨م .

---

٢ ـ اللاراريوم : تابوت حفظ فيه الرومان صور الآلهة الخاصة ببيتهم وأسرتهم .

وكان لهذا العيد دوي شديد الأثر في معاصريه والأجيال القادمة، كأن عصراً جديداً قد بدأ. وتوجه الناس تحت ضغط الحاضر القلق نحو المستقبل لعله يحقق لهم أمانيهم وآمالهم. وبدا أن قرناً جديداً يلوح عند الأفق، أعظم واهم من اي قرن جرى الاحتفال بحلوله فيما مضى. وعندئذ ازدادت عبادة الإلهة «روما» اهمية ادت إلى الإيمان بخلود روما وتجددها على الدوام. لقد

اكتسبت روما آنذاك وقبل انتصار المسيحية صبغة القداسة.

كان «فيليب العربي» آخر القياصرة الشرقيين على العرش الروماني، وبدأت مع «ديسيوس» (Decius) (٢٤٩ ـ ٢٥١م)، الذي خلعه عن العرش، سلطة سلسلة تكاد لا تنقطع من القياصرة القادمين من البلدان الإلليرية الواقعة على نهر الدانوب. ودخلت في عهدهم الحضارة الرومانية في مرحلتها الفاصلة. واذا كان السوريون قد وقفوا من هذه الحضارة موقف التسامح الحكيم واعترفوا بها لمصالحهم، فانها الآن قد اصبحت في المركز المهيمن.

كانت البلدان الواقعة على تخوم نهر الدانوب موطن القياصرة الإلليريين، وقد عرفت شعوبها كيف توفق بين أصلها وميلها إلى الطبيعة الرومانية. وأراد «البَنّونيون»[٣] (Pannonier) أن يصبحوا رومانيين حقيقيين بخلاف سكان «داسيا»[٤] (Dacia) الذي قاوموا الغزاة الرومان بضراوة مدة طويلة، ولكن بعد ان حلت بهم الهزيمة خضعوا عن رضى للحضارة المتفوقة. وكانت معظم النقوش التي عثر عليها هناك باللغة اللاتينية، كما يمكن مشاهدة صورة الذئبة الرومانية في كل أرجاء البلاد حيث قد تفاجئنا

٣ ـ بَنّونيا: ولاية رومانية بين نهر الدانوب ونهر الساف وجبال إقليم نوريكم.

٤ ـ داسيا: المنطقة الواقعة شمال نهر الدانوب وغرب البحر الأسود.

رؤيتها على جدار منزل فلاح في قرية من قرى رومانيا. وكان الوضع في «نوريكم»[٥] (Noricum) و«دلماتيا»[٦] (Dalmatia) لا يختلف كثيراً عمّا كان عليه في «بَنّونيا».

ولم يتغير موقف الإلليريين من الحضارة الرومانية وهم على عرش القيصر. فمنذ بداية عهدهم بذلوا جهدهم في سبيل الحفاظ على التقاليد الرومانية، كما انهم رضوا بالحركة التي كانت تسعى إلى تجديد الديانة الرومانية، ورفض الدين المسيحي الذي كان قد وجد بعض المؤيدين أيام حكم الشرقيين.

وهكذا فقدت الآلهة السورية سندها مع اختفاء القياصرة السوريين. وبين ليلة وضحاها فقد «جوبيتر دوليكينوس» عباده أجمعين، بعد ان كادت عبادته تنتشر في معظم المناطق الحدودية. وعلى كل حال فاننا لا نجد له ذكراً عند الآباء المسيحيين نظراً لانحسار شأنه.

تعود النهضة الرومانية في ظل القياصرة الإلليريين إلى قوة فكرة الحضارة الرومانية، أو متانتها إن صح التعبير. كانت هذه الفكرة أصلاً مرتبطة بشعب معين ثم اخذت تستقل تدريجياً لتصبح احدى الظواهر الفكرية العظيمة التي لها وجودها الخاص بها. وانها لظواهر تخضع لقانون غير قانون الموجودات العضوية التي لا تعرف غير النمو والنضج ثم الفناء. والحق انها اذا ما نشأت اكتسبت خاصة الاستمرارية بما فيها من دعوة إلى استيعاب العناصر الجديدة والتعمق فيها. وعلى هذا الأساس شكلت هذه الظواهر مقياساً ونموذجاً للأشكال الخاصة بالعصور القادمة. وبهذا المعنى كسبت فكرة الحضارة الرومانية والدولة التي قامت عليها، أي الامبراطورية

---

٥ ـ نوريكم: منطقة شرق جبال الألب.

٦ ـ دلماتيا: المنطقة الساحلية في يوغسلافيا اليوم.

الرومانية، الإلليريين إلى جانبها.

في هذا المقام يجدر بنا أن نقدر أيضاً قابلية الإلليريين وطبيعتهم اذ كانوا خلافاً للسوريين هند وجرمانيي الأصل وأوروبيي المنشأ. وقد استقروا في المناطق المجاورة لبلاد اليونان والإيطاليين والجرمان، ممن يمتون اليهم بصلة القرابة لغةً ونشأةً. وتؤكد الرسوم والكتابات المنقوشة على صخور وادي «كامونيكا»[٧] (Val Camonica) أن الفينيسين المنحدرين مع الإلليريين من أصل واحد، لعبوا دوراً في تاريخ اللاتينيين القديم. وفي العصور التاريخية كان بعض شعبهم مستقراً على الأراضي الإيطالية. وبطبيعة الحال كان استعدادهم لقبول الحضارة الرومانية غير استعداد أسرة السيفيريين ومن جاء بعدهم من العرب. ولم يهتم الإلليريون بالاستفادة من الشكل الروماني ولم يشق عليهم الارتضاء به، كما انهم لم يكونوا بحاجة إلى تكلف الاحترام تجاه الديانة الرومانية، بل انهم استطاعوا على الأرجح أن يكتسبوا جوانب معينة من الحضارة الرومانية حق الاكتساب. وكانوا يعتبرون أنفسهم مناضلين في سبيلها، ولذا تجاوزوا مجرد الحفاظ عليها إلى ابداع ذي شأن، وسوف نرى ذلك في حديثنا عن الأحداث المتعلقة بإله الشمس.

عودة إله الشمس الحمصي

سلك «هيليودور» الطريق الأدبية في دعوته إلى إلهه. وكانت الرواية كأداة تبشيرية معروفة منذ زمن، ولا سيما روايتا «أبوليوس» (Apuleius) و «اكسينوفون الأفسوسي» (Xenophon v. Ephesos) في تمجيد الإلهة

٧ ـ وادي كامونيكا: في شمال إيطاليا. تعود النقوش التي اكتشفت فيه إلى القرن الرابع قبل الميلاد. (المترجمة).

«إيـزيس»، ورواية «فيلوسـترات» (Philòstrat) الـذي اختـار هذا الشكـل الأدبي ليروي حيـاة الفيلسـوف وصـاحب المعجزات «أبولونيوس الطياني». غير ان حمص لم تنتهج هذه الطريق إلا بعد ضياع السلطة السياسية.

لا تدخـل الـروايـة في نوع أدبي محدد واضح المعـالم، لا في العصـر الكـلاسيكي ولا اليـوم، ويصـح هذا فيـا يتعلق بشكلها ومضمونها على حد سواء. فالعصـور التي كانت لها فكـرة متكـاملة عن العالم والإيمان بالألـوهـة الحاضرة ابداً لم تعرف الرواية التي هي خاصة من خواص العصور التي فقدت نظـامها القديم وكذلك نقطة ارتكازها، فأصبحت تتخبط وتتلمس طريقها. قيـل ان الـرواية تعبير عن فكرة غير متكاملة عن العالم، واكثر من ذلك: انها ابداع عصر الكتب (كارل كَير ينيي، Kar Kerényi) حيث تعوِّض فيه التجربةُ المستمـدة من الكتـاب عن تجربـة الحيـاة. وفي هذه الحال فان الجمهور الذي تتـوجه إليه الرواية يختلف عن جمهور الأسطورة في شكلها الملحمي والمأساوي، وحتى الحكاية الشعبية التي كانت بحاجة إلى جماعة من المستمعين. فالرواية يقـرؤ هـا الفـرد، وعلى الرغم من توجهها إلى الجماهير وانتشارها على نطاق واسع، تذهب بالمجالسة وتؤ دي إلى الوحدة. وكانت الرواية الهادفة إلى نشر دعوة ما تخاطب الفرد.

أدت الـروايـة إلى انحـلال العـلاقـات السـابقة والهرب من المجتمع والحـاضـر القلق في آن واحـد، ولهـذا السبب بالـذات كانت تتـلاقى رغبات العصـر حتى اصبحت في القـرن الثـاني وحتى الثـالث قوة، كما تبرهن على ذلـك الـبرديـات. فاستخـدم مؤ لفـوهـا ومعظمهم من اصـل شرقي اداة الانحـلال هذه بحماس وحـدس سليم، حين رأوا في انهيار عالم قديم وظهور عالم جديد، كانوا يمثلونه، ظاهرتين متلازمتين.

جاءت على إثر الرواية، الفلسفةُ الافلاطونية المحدثة التي كان يمثلها «فروفوريوس»، وعاد إله الشمس يحتل في نظامها مكانته. ويبدو ان الفرصة

قد سنحت لها باعتلاء «غاليانوس» (Gallienus) العرش، وانقطاع سلسلة القياصرة الإلليريين لمدة عقد ونصف (٢٥٣ - ٢٦٨م). واذا كان «ديسيوس» (Decius) و «فاليريان» (Valerian) والد «غاليانوس»، خلال حكمهما المشترك (٢٥٣ - ٢٦٠م)، قد قمعا المسيحية بأساليب العنف، فان «غاليانوس» (بعد انفراده بالحكم) اتخذ طريقاً أخرى. لقد اراد ان يخوض المعركة بأسلحة عقلية، ولذا اختار قوتين قد تحالفتا من قبل، ليرتكن عليهما في الجدل الديني. كانت احدى القوتين العبادة الإيلوسية وكهنتها الممثلة بالأسر الكبيرة وماوعدت به من خلود وتوحد مع الإله. وثانيتهما الفلسفة التي كانت تسعى إلى نفس الأهداف ولكن بوسائل اخرى. لهذا تحالف القيصر مع الأفلاطونيين المحدثين وعلى رأسهم «أفلوطين»، معلم هذا المذهب الذي حظي بُحظوة كبيرة عند «غاليانوس» وزوجته «سالونينا» (Salonina)، اذ رأى القيصر فيه وفي تلاميذه الخلفاء الصالحين لخوض المعركة التي تهيأ لها.

وفي عام ٢٦٨م اغتيل «غاليانوس» على يد ضباطه الإلليريين المتآمرين عليه. وخلفه مرّة اخرى قياصرة مختارون من صفوف الإلليريين. كانت احلام «غليانوس» ومساعيه، عالماً غريباً عن هؤلاء الرجال الذين كانوا بعيدين كل البعد عن التفكير باحياء الفلسفة اليونانية والدين اليوناني. وعلينا ان نضيف هنا ان الشعبية اليونانية هي الأخرى تحولت إلى فكرة حضارية مستقلة عن الشعب الذي نشأت فيه. فمعظم اتباع «أفلوطين» كانوا من أصل سوري مثل «فورفوريوس» و «لونجين» (توفي عام ٢٧٣م) و «كلينيكوس» (Kallinikos) وغيرهم. وقد حاولت جماعة الفلاسفة الذين تفرقوا بعد موت «غاليانوس» ان يتجمعوا من جديد في سورية. وكان أملهم أن تكون «زنوبيا»، ملكة تدمر (٢٦٧ - ٢٧٣م)، دعماً لهم ويصبح بلاطها مركزهم الفكري. وبالفعل فان «لونجين» قد اصبح موجهاً لسياسة تدمر.

ولكن ما كانوا قد حققوه عاد لينهار على يد الإلليريين الحديدية. كان

«أورليـان» (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) يعـارض كل ما لم يكن له لون روماني في الفلسفة والأدب السيـاسي ، كما اخـذ يحارب تقلب السـوريـين واحـلام ملكـة تدمر بالسلطـة . وهكـذا أعـدم «لـونجـين» لأنـه علّم الملكـة الثقافة اليونانية وكان مستشـارهـا السيـاسي ، والقيصر نفسه هو الذي اصدر حكم الإعدام عليه . وعلى العموم أدّت القبضة الحديدية إلى تغيير الاتجاه تغيراً جذرياً . وكذلك كان لا يمكن ان تؤثر تصورات كالتي عبرت عنها رواية «هيليودور» في القيصر الـذي لم يكن يفكـر إطـلاقـاً في تأييـد دعـوة تخاطب الفـرد ، كما لم تكن تهمـه التمنيات والرؤى الخاصة وانما كان يفكر في بناء الواقع سياسياً وعسكرياً وفقاً لتصوراته هو.

كانت تلك الأيام المصيرية تتمخض عن قرارات حامسة ، وبدا وكأن روح الكون نفسها قد أمسكت أنفاسها . واصبح ـ والحالة هذه ـ مستقبل إله الشمس ايضاً على كفة الميزان مرّة اخرى ، بعد هزيمته قبل نصف قرن امام مقاومة عالم الرومان المعادي له ، والذي حمل لواء الحضارة الرومانية . لا شك في أن إله الشمس استطاع في اثناء ذلك ان يعود ليوطد قدمه بعض الشيء ، ولكن حتى «هيليـودور» ـ رغم استعـداده لأن يقبـل بكل شيء لصالح إلهه ، وان ينتـزعـه من موطنـه اذا اقتضى الأمر ذلك ـ حتى «هيليودور» هذا ، تجنب الاقـتراب من الحـوزة الـرومـانيـة . فـنلاحـظ انه ادخل في روايته ، اليونان ، ووادي النيـل ، والجنـوب الأقصى للمعمـورة ، وبـلاد الفـرس وإثيوبيا ، أما ايطـاليـا وعـاصمتهـا فلم يذكـرهما بكلمـة واحـدة . ولا يشـذ عن ذلـك «فـورفـوريـوس» الـذي لم يلمـح بشكل من الأشكال إلى آلهة روما أو عبادتها الرسمية . وكان هؤلاء على وعي كامل بدواعي تحفظهم من الاقتراب ، ولا شك في انهم كانوا على حق فيما فعلوا . ولكنه تبين آنذاك ان كل مكسب بقي معرضاً للخطر ما دام صاحبه بعيداً عن اثبات قدمه في روما بالذات . والحق ان الـدعـوة التي استنـدت إلى دعـايـة دؤوبـة اصبحت عرضة للوقوع تحت

احكام «أورليان»، التي وضعها في سبيل نهضة الحضارة الرومانية. ويبدأ الأمر على انه مسألة وقت لا اكثر، حتى ينال التيار الجارف من إله الشمس نفسه، فلم يكن هناك ما يضمن نجاته من هذا المصير.

وصادف ان «أورليان» بالذات ساعد إله الشمس الحمصي على العودة والارتقاء الى منزلة إله الامبراطورية. واذا كانت هذه الحقيقة وحدها تمثل تناقضاً تاريخياً، فان التناقض الثاني هو ان ارتقاء الإله نتج عن هزيمة الشرق وتدمر، القوة المسيطرة فيه. فقد كانت استعادة الإله السوري مكانته في روما من نتائج القضاء على المملكة السورية. إلا ان شرط انتصاره الجديد كان أن يتخلى عن أصالته. وبذلك تحول الإله الحمصي إلى إله روماني له أسطورته الجديدة. وكانت هذه الأسطورة رومانية، وبالتالي كانت اسطورة تاريخية.

واجه الجيش التدمري «أورليان» للمعركة الفاصلة على مقربة من مدينة حمص التي كانت بوابة إلى تدمر. في هذه المعركة كان على إله الشمس ان يختار بين «أورليان» او الملكة «زنوبيا». وعندما بلغت المعركة ذروتها (بناء على ما تخبرنا سيرة القيصر المدونة في آخر العصر الروماني) اضطرب الفرسان الرومان ومالوا إلى الهروب. وفي هذه اللحظة تراءى للمشاة تجلٍ إلهي وأوصاهم بمواصلة القتال. ثم دخل القيصر المنتصر حمص حيث رأى في إله الشمس، المعبود في المدينة، تلك القوة التي وقفت إلى جانب جنوده. ولذا أمر ببناء معبد على منحدر الكويرينال في روما تعظيماً لهذا الإله.

اكد نصر «أورليان» ان اله الشمس قد وقف إلى جانب الرومان. وفي نفس الوقت تقرر مصير مدينة حمص لصالحها. كانت منطقة حمص تتاخم منطقة تدمر، غير ان العلاقة بين المدينتين لم تكن علاقة ودية. هكذا يدلنا على ذلك ان احد المطالبين الشرقيين بعرش القيصر في أيام حكم «غليانوس» في عام ٢٦٠م، اتخذ مدينة حمص مقراً له حيث أمر بسكّ نقود عليها صورة

إلـه الشمس، ولكن «أذينـة» (توفي عام ٢٦٧م)، حاكم تدمر آنذاك، تقدم ليقضي على ذلك المتمرد بأمر من «غاليانوس». وعندما فتح المدينة، اصيبت بخسـائـر فادحـة، لا سيما بسبب مواقف الرفض التي وقفتها المدينة سابقاً تجاه كل مطالب «البرابرة» التدمريين.

ومنذ ذلك الوقت نصبت العداوة بين المدينتين المجاورتين. وقد طلبت تدمـر المنتصـرة إلـه الشمس لنفسها، وحدث فعلاً ان المؤلف اليهودي الذي كتب في عهـد «غـاليانوس» كتاب «السيبيليات» الرابع عشرة سمى هذا الإله إلـه تدمـر. كما ان حاكمهـا «أذينـة» كانت له ألقـاب مثل «كاهن الشمس» و «ليث الشمس المروع المخيف». وبانتصار «أورليان» وإزاحة سلطة «زنوبيا»، انتقـل الإلـه إلى الطـرف الذي كان أهل حمص يؤيدونه (أي إلى الرومان). ففتحوا للمنتصر أبواب المدينة دون ابداء أية مقاومة، بينما اعدت تدمر عدتها للمواجهة الأخيرة الميؤوس منها.

وعنـدمـا نقـل «أورليان» عبادة الإله الذي نصره، إلى روما لم تتم هذه العملية بعنف، كما لو انتزع من مدينة مهزومة، فحمص ـ خلافاً لتدمر ـ لم تكن عدواً لرومـا وانـما كانت حليفـة تابعـة لها. ونـال معبـد إلـه الشمس من الإكرام والعطايا ما نال. بينما أُخِذَ إلها تدمر «بيل» و «هيليوس» غنيمتين إلى رومـا. وممـا يلفت النظـر هو اننـا لا نسمـع شيئـاً عن مشـاركة كهنة حمص في تأسيس العبادة الرومانية.

والواقع ان الطابع الروماني لم يستول على الأسطورة وحدها، بل تناول ايضـاً طقـوس الإله المستورد حديثاً ليتغلغل فيها ويعطيها ملامحه. وشيد لإله الشمس الـذي أتى به «أورليـان» معبـد رسمي، في حين ان «إيلاجبال» كان يبني هياكل إلهه على أراضيه الخاصة.

ولم نعـد نسمـع شيئـاً عن الحجـر المقـدس، كما انـه لا يوجـد ذكـر للاحتفالات الماجنة التي كان «إيلاجبال» يقيمها لإلهه. وليس السوريون هم

الذين قاموا بشؤون العبادة، بل اعضاء مجلس الشيوخ الرومانيون المتساوون مع طبقة الكهنة العليا، والمشكلون مثلهم هيئة الكهنة الرومانية. وكانوا يقيمون احتفالات بعيد «إله الشمس الذي لا يقهر» (Deus sol Invictus)، ملؤها الأبهة كل أربع سنوات، في ٢٥ كانون اول وهو يوم عيد ميلاد جميع الآلهة الشمسية الشرقية. فضلاً عن ذلك بقي إله الشمس دون زوجة ونسل على غرار آلهة روما وعلى رأسها «جوبيتر، صاحب الكابيتول»[٨].

وأخيراً لم نعد نجد أية علاقة بينه وبين ظواهر الطبيعة من ازدهار وفناء. فقد اصبح الإله ـ أيضاً على شاكلة «جوبيتر» رمزاً فكرياً وسياسياً مجرداً خاصاً بالامراطورية العالمية.

إله الامبراطورية

لم يكن الإنسان الروماني يميل في يوم من الأيام إلى بناء عالم منظم وفقاً لصورة مثالية معتمدة على مقاييس العقل ودون مراعاة المعطيات التاريخية، بل كان يميل إلى الأرجح إلى إبراز كل ما قدمته الطبيعة وما أنشأه الإنسان إبرازاً معقولاً وواضحاً. فشعر بالمسؤولية تجاه ظواهر تبلورت تحت ظروف معينة، وبذل كل جهده في سبيل تطويرها من كل جوانبها.

كان الرومان يعتمدون بشكل خاص على الاشارات التي أعطتها الآلهة لزعماء الدولة في اللحظات الحاسمة. وكانوا يعتقدون أن تلك الإشارات هي التي كانت توجه مصير المجتمع الإنساني منذ البدء. وقد افتخروا بأنهم كانوا اكثر الشعوب استعداداً لقبول تلك الإشارات الإلهية. وفي اعتقادهم، كان يكمن سبب عظمة الرومان الحقيقي في التوجيه الإلهي

---

٨ ـ الكابيتول: قلعة روما.

وانقيـاد الإنســان لقـرارات القوى الإلهية . وفي كل الحالات ، كانوا يعتبرون أنفسهم أداة للآلهـة التي كانـوا تحت رعـايتها . وقد منح لهم هذا الشعور الثقة المطلقة والإحساس بأن لهم رسالة تاريخية .

وتلقى «أورليـان» مثـل هذه الإشـارة الإلهيـة ، بظهـور إله الشمس في المعركة على أبواب مدينة حمص . وبطبيعة الحال كان لظهور الإله حين كانت المعركة على أشدها معنى ملزم للمنتصر، بالاضافة إلى اعتبارات عامة دعت إلى الاهتمام باله الشمس .

كان هدف «أورليـان» اعـادة بنـاء الامـبراطـوريـة . والظاهر ان فكرة سطـوع الشمس على ماضي رومـا العظيم ، والمعمـورة كلهـا ، طغت على القيصـر ودفعتـه إلى أداء مهمتـه ، كأن الشمس نفسهـا استحضرت في ذهنه وحـدة الامـبراطـوريـة . وهكـذا كان من الممكن أن يجمـع بين عبـاد «أبولو» اليـونـانيـين والـرومـان و «مـين»[9] (Men) و«إيـلاجبال» و «ميترا» الشرقيين . وسوف نرى ان هذه الدائرة قد اتسعت لعدد آخر من الآلهة .

كان القيصـر يعتقـد ان إلـه الشمس هو الذي يوجه أعماله ، وهو الذي منحـه العـرش . ويـوم ثار الجنود هتف بهم «أورليان» انه لم يستمد سلطته من الجيش بل استمدها من الله ، وان الله هو الذي منح القياصرة الأرجوان ويحدد مدة حكمهم . وتُظهـر القطـع النقـديـة العـائـدة لـ «أوليان» ولاء جنوده لإله الشمس بصفتـه قائـد الجيش . وهناك تمثال نصفي لإله الشمس الذي يظلل القيصر مع الإلهة «كونكورديا»[10] ، تعبيراً عن الوحدة التي يضمنها الإله لخير الامبراطورية وحاكمها .

---

٩ ـ مين : إله القمر الذي انتشرت عبادته في آسيا الصغرى ولا سيما فريجيا . كان سيد السما والعالم الأسفل في آن واحد .

١٠ ـ كونكورديا : إلهة الوحدة الرومانية .

ان هذا الإلـه نفسـه هو الـذي أعـاد للامبراطورية الشرق الذي ضاع منها. واذا كان «أورليان» اعاد للأرض وحدتها وسلامها، فانه نفذ بذلك ارادة إلـه الشمس الـذي وجـه خطـاه. ولذلك تظهر الشمس على القطع النقدية بدور سيد الامبراطورية، بينما نرى القيصر ممثلها الدنيوي الذي يوجه مصير الامـبراطـوريـة والعـالم. ومن الجـديـر بالـذكر أن نقوشاً عثر عليها في سوس وهــترا، تكشف أن لقب «السيـد» قد اطلق على كلا الإلهــين «أبــولـو» و «هيليوس» في بلاد الشرق منذ القديم.

اذا كان «إيـلاجبـال» قد رأى في نفسـه تشخيصـاً لسيـده الإلهي، فان «أورليـان» ربـما لم يكن بعيـداً عن مثـل هذه الأفكار. ومن ذلك ان تاجه كان مزيّنـاً بنجم يرمـز إلى ملكيتـه المقـدسة. وفي بعض الأحيان يظهر «أورليان» ايضـاً «إلهـاً» أو «سيداً وإلهاً» مثل الشمس بالذات. كانت مثل تلك الألقاب نابعة عن الرغبة في البناء التي سيطرت على موحِّد الامبراطورية ومجددها.

لا يصح ان نربط حركات الإصلاح الديني بالمصلحة السياسية فقط، لا عنـد «أورليـان» ولا عنـد «أوغسطس» قبله ولا عنـد «قسطنطين» بعده. والحق ان احداً لا يعبد إلهاً صنعه بنفسه. ولا شك في ان رجلاً مستقيماً وواثقاً من نفسه مثل «أورليان» قد تأثر بعظمة مهمته التي شعر بأنها رسالة إلهية، وبما ان ادخال إلـه الشمس، الـذي رأى فيـه ضمانـاً لعمله ولامـراطـوريتـه التي استعـادت وحـدتهـا، كان نتيجـة تجربـة جديـدة، فان العبادة ايضاً اتسمت بملامح جديدة وفريدة من نوعها.

إله الجيش

مع هذا كله، لم تكتمـل صورة الإلـه الجـديـد بعـد. فعلى الرغم من ملامحـه الـرومانية، ظل «إله الشمس الذي لا يقهر» قوة عالمية، اذ كان يجمع بين أصله الشـرقي ومقـره في رومـا، وكـان إلهاً صالحاً لأن تعبده جميع شعوب

الامبراطورية. ولم يشكل الأمر مشكلة بالنسبة لعباد «أبولو» و«ميترا» و «هيليوس» وأبعال السوريين،، ولكن ما هو موقف سكان ولايات روما الشمالية - أمثال السلت والجرمان والإلليريين - من الإله الجديد؟ لا بد من طرح هذا السؤال لاسيما وان هذه الشعوب ازدادت أهمية في الامبراطورية والجيش إبّان القرن الثالث الميلادي. كان «أورليان» نفسه إلليري الأصل ونشأ في «سيرميوم»[11] (Sirmium) أو، بناءاً على أخبار أخرى، في قرية من قرى بلغاريا الحالية. وقيل ان أمه كانت كاهنة إله الشمس المحلي، وهناك من الدلائل التي تشير إلى أن عبادة هذا الإله كانت منتشرة عند الإلّليريين وأهل طراقيا. وقد عثر حديثاً على نقش يقول إن زوجين طراقيين كرّسا حياتهما للشمس والقمر.

ونجد الجواب على سؤالنا في أحد مراجع الدولة والجيش (Notitia dignitatum) المدونة في فترات روما المتأخرة. وهو سجلٌ لكل رتب الجيش وأقسامه في الامبراطورية، وصل إلينا كمخطوطة يعود تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي وكانت محفوظة في مدينة «شباير» (Speyer) الألمانية. وقد ضاعت المخطوطة الأصلية، غير ان هناك نسخاً تعود إلى القرن الخامس عشر وتقدم لنا فكرة جيدة عن هذا المرجع. تمت كتابة السجل عام ٤٢٩م أو ٤٣٠م، ولكن أجزاء عديدة منه تعكس أحوال القرنين السابقين، أي القرن الرابع وفي بعض الأحيان حتى أواخر القرن الثالث الميلادي. وكانت المخطوطة مزودة بصور صغيرة عليها شارات وأشكال موظفي الدولة، وقبل كل شيء، شارات أهم فرق الجيش.

كان مرجع الدولة والجيش ينطوي على ما يقارب ثلاثمائة شعار ملون

---

١١ - سيرميوم: المستوطن الروماني الرئيسي في منطقة بَنّونيا السفلى (يوغسلافيا اليوم) (المترجمة).

لفرق الجيش الروماني في الفترات المتأخرة. ويوجد في هذا الكتاب الأقدم من نوعه، الجامع للشعارات، بعض الصور التي تختلف عن الصور المعروفة في العصور القديمة الكلاسيكية. وتحتل الرموز المستعملة في أوربا الوسطى والشمالية حيزاً كبيراً من الكتاب، وبينها أشكال من الزواحف وتيجان العصي مما هو معروف لدى شعوب الفروسية الآسيوية والأوربية الشرقية، أو الأحرف السرية الجرمانية التي كانت في الأصل رموزاً لا إشارات كتابة. وعلى احدى تلك الصور الرمزية يواجهنا الإله «فودان»[١٢] (Wodan)، في هيئة تذكرنا بصورة الإله المسلح بالرمح التي اكتشفت على الجدران الصخرية في كل من «بوهوسلين»[١٣] (bohuslain) و «أوسترغوتلاند»[١٤] (Ostergotland) و «وادي كامونيكا»[١٥] (Val Camonica). كما اننا نرى على شعار فرقة إلليرية أوسلتية رمز الأيل القديم قدم الدهر.

أما أغلبية رموز الشعارات فتتعلق بالكواكب ولا سيما بالشمس ودورانها. هناك نجوم أو أقراص محاطة بالأشعة، وإلى جانبها أشكال مدورة، تذكر ببعض الأشكال المرسومة على الجدران الصخرية، أو بالدولاب السلتي الذي كان بلا شك رمزاً شمسياً اشترك فيه الجرمان والسلت كما انه لم يكن غريباً عند الإلليريين. ونجد عند الفرق الجرمانية الهلال مرتبطاً مع قرص الشمس. وتدخل في هذه المجموعة الدوائر المتحدة المركز التي ترك لنا كل من الشعوب الاسكاندينافية والسلت والإلليريين رسومها على الجدران الصخرية. وهناك أشكال متعددة للصليب المعقوف الذي يشكل

---

١٢ ـ فودان: اسم للإله «أودين» الذي عبده الجرمان كإله الحرب والأبطال وأب الموتى.

١٣ ـ بوهوسلين: منطقة في السويد.

١٤ ـ أوسترغوتلاند: منطقة في السويد.

١٥ ـ وادي كامونيكا: منطقة في شمال إيطاليا عثر فيها على رسوم جدارية تمتد على عدة كيلومترات.

رمـزاً خاصــاً بالشمس . واخيراً نعلـم ان قرصاً مركباً على قاعدة مصنوعة من العيـدان او ما يشبـه الأنـابيب ، كان رمـزاً للشمس المعبـودة عنـد البَنّـونيـين الإلليريين أو البايونيين .

ولعـل الـرمـوز الشمسيـة بأشكـالهـا المتنـوعـة ، تشكل نصف مجموعة الشعـارات المـوجـودة في مرجـع الدولة والجيش ، ولا تجاريها طائفة اخرى من الصور . ترى ، في أية مرحلة تاريخية تم هذا الترتيب ومن الذي وقف وراءه؟

لا شك في أن بعض الشعـارات لم يتم ابـداعهـا واهداؤ ها قبل القرن الـرابـع الميـلادي ، كما ان هنـاك الكثـير مما اعتراه التغيير على مر الأيام ، اما بسبب تقريبه او اشتقاقه من اشكال سابقة اوتطويره . واخيراً يحتمل ان معنى بعض الـرمـوز اصبـح يطويه النسيان او انها اكتسبت معانٍ اخرى في العصور المسيحيـة . إلا ان تلك الـرمـوز الشمسية بتنوعاتها يمكن إثبات وجودها على التـماثيـل منـذ أواخـر القـرن الثـالث الميـلادي وأول القرن الرابع الميلادي . ويشهـد على ذلـك قوس «غـالـيريـوس» (Galerius) في سلانيـك كما تشهد الفسيفسـاء التي عثر عليهـا حديثـاً في الفيـلا القـائمـة في «بياتسا أرميرينا» (Piazza Armerina) في شرق صقـليـــا . فنـستنتـــج من ذلـــك ان بعض هذه الاشارات كانت موجودة في عصر «ديوقليتيان» (Diokletian) وقسطنطين .

يدل عدد الرموز الشمسية الموجودة على الشعارات ، على وجود ارادة متـماسكـة تتصف بالوعي والقدرة على الابداع . وكانت الشمس مركز تفكير صاحب هذا الإبـداع . ولا ريب في ان الجيش الـذي رسمت رمـوز الشمس على دروعـه ، كان جيش إلـه الشمس الـذي خضـع له وأطـاعه وقاتل تحت رايته . ومن الواضح ان مدبر هذه الأمور ليس سوى «أورليان» .

لقـــد رأينـا على شعـارات الفـرق رمـوزاً شمسيـة خاصـة بالجـرمـان والإلليريـين بأشكـال متشـابهة ومتشابكة في كثير من الأحيان . وكان القيصر بالـذات من اصـل إلليري كما ان الضبـاط وصفوة الجنود كانوا من الإلليريين

أيضـاً . تألفت الفـرق التي حارب بها أورليـان» تدمـر، من فرسان دلماتيا ومن جنود منتمين إلى شعوب مناطق نهر الدانوب، ومنها «البَنونيون» و«الموزيون» و«الطـراقيـون» الـذين تربطهم صلة القـرابة مع الإلليريين، ومن رجال من قبـائـل سلتية من نوريكم وريتيا (Raetia) بالإضافة إلى الغاليين الذين كانوا يعـدون من أبـرع الجنود. واخيراً، يعود إلى «أورليان» النظام الجديد الذي قاتـل الجـرمـان بمـوجبـه في صفوف قبائلهم وبأسلحتهم الخاصة بهم. وحمل جنـــود قبـــائـــل الـ «يـوتـونـغ» (Juthungen) و الـ «ألمـان» (Allamannen) و «الفاندال» (Vendalen) زيّهم وأسلحتهم فضلاً عن شعاراتهم المزيّنة برموزهم الدينية.

ان ظهـور رمـوز شـمسية على الدروع المستعملة في الجيش الروماني في العصـور المتأخـرة أيـام حكم «أورليـان»، ليلقي ضوءاً جديـداً على تصرفه. ويظهـر ان الإلـه الجـديـد، على الـرغم من أصله الشـرقي، كان ذا ملامـح عالمية. وعندما رفع القيصر إله الشمس إلى منزلة إله الامبراطورية حوّله إلى إلـــه جديـــد في ثوب رومـاني. وفي نفس الـوقت أعطى للإلليريـين والسلت والجـرمـان الإله المناسب لطبيعتهم. وقد انعكسّ تزايد أهمية هذه الشعوب في بناء الامبراطورية والدفاع عنها على بانثيون هذه الامبراطورية.

تقـدم لنا سيرة «أورليان» وصفاً لاحتفالات الانتصار الرائعة التي أقامها بعـد انتهـاء حملاتـه العسكـريـة. نقـرأ ما يلي: «كانت هناك ثلاث عربات، احداها من ممتلكات «أذينة» التدمري مزخرفة بالفضة والذهـب والمجوهرات، ومثلهـا العـربة الثانية التي اهداها ملك الفرس إلى أورليان. أما العربة الثالثة فكانت ملك «زنوبيا» التي أمرت بصنعها املة ان ترى روما راكبة عليها. وقد تحقق لها ذلك اذ انها بعد هزيمتها دخلت روما على ظهر تلك العربة، لكن في موكب نصر أورليان عليها». ويتابع النص بأنه كانت هناك عربة رابعة تجرها أربعـة أيائل، وقيل أنها كان خاصة بملك القوط. ونعلم من مصادر عديدة أن

«أورليـان» ركب هذه العـربـة إلى قلعـة رومـا ليقـدم فيها الأيائل قرباناً لأنها وقعت، حسب الأخبـار المتعـددة، هي والعـربـة غنيمـة في يده فنذرها للإله «جوبيتر» الأعظم.

لا تهمنـا هنـا العـربـات الثلاث الأولى، ولكن عربة ملك القوط التي كانت تجرها الأيائل هي التي تثير انتباهنا لأنها تلائم صورة معروفة لدينا. انها تذكـرنـا بالـرسوم المنقوشة على الصخور في اسكاندينافيا، أوبالآثار الفنية في المناطق الشمالية العائدة إلى العصر البرونزي، حيث نلتقي بالأيل أو الغزالة أمـام الـدائـرة الشمسية. ان هذه الصور منتشرة على مناطق واسعة حتى اننا نجـدهـا في وادي كامـونيكـا. وفي منطقة بوهوسلين مثلاً نرى الأيل واقفاً إلى جانب العـربـة الخـاليـة من عدة اللجـام. والحق ان هذه الأيـائـل القـوطيـة الأربعـة، تشكـل حلقـة من سلسلة تلك التصـورات التي ينتمي إليها راكب الأيـل المـرسـوم على الأوعية التي كان الجرمان الشرقيون يدفنون بها موتاهم، وكـذلـك الإلهـان التوأمان الفنداليان اللذان يدل اسميهما على انتسابهما إلى الأيائل الإلهية.

لايستخـدم «أورليـان» العربات الأخرى، وانما يركب العربة التي تجرها الأيائل ليقدم هذه الحيوانات قرباناً لـ «جوبيتر» الكابيتولي. لا يوجد في هذا الطقس ما يماثله في الطقـوس الـرومـانيـة. وبـالمقـابل كان مثل هذا الطقس معـروفـاً عنـد الإلليريـين بدليـل قطعـة من العصـر الحـديـدي (١٢٠٠ - ٥٠٠ق.م) عليها صورة عربة خاصة بشؤون العبادة يتقدمها أيل يساق إلى المذبح. وكذلك نرى صورتين مماثلتين على عربة مصنوعة من البرونز كانت تستعمـل لشؤون العبـادة، وقـد اكتشفت في «شـتر يتفيـغ» (Strettweg) بالنمسـا. ترى، هل قام «أورليان» باحياء طقس كان يمارس في وطنه وهويقدم أيائل العربة الملكية القوطية قرباناً لإله الكابيتول؟

لم ينقـل إلينـا التـاريخ الشيء الكثير عن مميزات «أورليان» الشخصية

ونكاد لا نعلم شيئاً عن أعظم الإلليريين هذا، بخلاف معلوماتنا المفصلة عن حياة «سبتيموس سيفيروس» و«كاركّلا» و«ميسا» و«إيلاجبال». لقد تمنينا ان ننتزع بعض الشيء من هذه الأخبار القليلة، واذا ما نجحنا في إدراك فكرة الرجل الدينية الرئيسة، فاننا نعتبر ذلك خطوة هامة إلى الأمام.

الفصل السابع

قسطنطين الكبير

تقترب الطريق الملتوية التي سرنا عليها لتتبع قصة إله الشمس من النهاية. والكثير الذي كان في البداية يحتل مكان الصدارة لم يعد يلعب دوراً. كان على حمص وعلى الأصل السوري، أوحتى العربي بشكل عام، وعلى القيصرية السورية ان تنسحب، لأن العودة إلى الشروط السابقة اصبحت مستحيلة. ومع ذلك فقد لاحت بوادر النجاح السياسي مرة ثانية بعد ان تلاشى الأمل فيه منذ سقوط «إيلاجبال». وأخيراً تحقق ارتفاع «هيليوس» إلى منزلة السيد الأعلى وإله الامبراطورية. ولكن هذا التحول لم يتم على يد رجل سوري وانما بفضل أحد القياصرة الإلليريين. وفي هذه المرة نجح الجمع بين الحضارة الرومانية والإله السوري، وقبل العالم الروماني المتميز بنزعته القومية وتصوراته الدينية ـ ذلك العالم الذي عصف ردّه العنيف بـ «إيلاجبال» في الأمس ـ قبل باله الشمس في ثوبه الروماني.

وقد رافق النشاط الفكري الحدث السياسي. والواقع ان صورة الإله وعبادته انفصلتا منذ زمن طويل عن اصلهما، وطُهّرتا ورفعتا إلى منزلة أعلى. وكان أول من انتهج هذا الاتجاه «هيليودور» بروايته التي اضطرت إلى التنازل عن دورها القيادي في مجرى الأحداث. وخلفتها الفلسفة الأفلاطونية المحدثة التي استولت نظرياتها على «هيليوس» وأدخلته في نظامها الكوني. كانت نتيجة ذلك ظهور الرأي المفاجىء بان الشمس لا تستحق أن تشغل المكانة الأولى في هرم النظام الإلهي وانما المكانة الثانية.

لقـد سلك التطـور السيـاسي والفلسفي طريقـين مختلفتين. فبينما قام الطـرف الأول برفـع الإلـه إلى منـزلـة أعلى، أنزله الطرف الثاني إلى درجة أدنى، ومقـابـل دور السيـد الـذي يحتـل المنـزلة العليا هنا كان له دور الخادم والـوسيـط هنـاك. وطـالمـا بقيت السيـاسـة والفلسفة منفصلتين عن بعضهما البعض، لم يشعـر أحـد بهذا التنـاقض. ولكن ماذا سيحـدث اذا ما تبـين ان الفلسفة كانت اشد تأثيراً في المعاصرين من العبادة الرسمية المجددة حديثاً؟ لقد غلبت الأفلاطونية المحدثة انتفاضة الديانة الرومانية الأخيرة.

ان هذين التيـارين اثـرا في القيصر الذي سيكون موضوع حديثنا على الصفحـات التـاليـة. والحق ان كلا التيـارين يرتسـمان بوضـوح في تصرفات القيصر وأعماله. إلا ان الطريقة التي وصل بها هذا الحاكم إلى الحل، بجمعه بين ما كان منفصلاً فيما مضى، وتحقيق وحدة جديدة، انما هي من ابداعه هو.

أورليان وقسطنطين

مع «قسطنطـين» (٣٠٦ - ٣٣٧م) اعتلى رجـل آخـر من الإلليريـين عرش القيصـر الـرومـاني. انـه يقف عنـد منعطف تاريخي متمثـل بتأسيس الكنيسـة المسيحيـة الـرسميـة في أيـامـه. حتى ذلـك الـوقت كان القيـاصرة الإلليريـون، بما فيهم «ديـوقليتيان» (٢٨٤ - ٣٠٥م) ومن شاركه في الحكم، ممثلين للحضارة والديانة الرومانيتين، بينما اقيمت في عهد «قسطنطين» الدولة المسيحيـة. وهـو لم يخط هذه الخطـوة الحـاسمة بشكـل مباشـر أوغير متأثـر بالأحـداث السـابقـة، وانـما كان التصور بوجود سيد إلهي شمسي قد ترك في نفس «قسطنطين» اثراً بعيد المدى.

كان «قسطنطين» يحيط نفسه بجملة صور تعبر عن قوة الكائن الأعلى النورانية وأشعته الساطعة وعن علاقة الله والقيصر بالشمس. وتجاه كثرة هذه الصور، بالإضافة إلى أقوال «قسطنطين» التي سوف نعود إليها، يتحتم علينا ان نفكر بان التصورات عن النور والشمس واضاءتها الكرة الأرضية، كان لها معنى عظيم بالنسبة للقيصر حتى آخر حياته.

«في ساعة الظهر والشمس تتوسط السماء» تراءى لـ «قسطنطين» الصليب، وفي مثل هذه الساعة ايضاً ارتقت روحه إلى رَبه. وقيل تعظيماً له ان «ضوء الشمس» لم يسطع على حاكم أعظم منه. واراد القيصر ان يقضي، بأمر من الله، على الفقر في كل البلاد الممتدة تحت اشعة الشمس. ثم ورد في احدى الرسائل أنّ الله هو الذي يجدد للشمس والقمر مسارهما وانهما علامتان لمشيئة الله الثابتة. ويقول «قسطنطين» عن يوم الجمعة الحزينة انه النور الذي يفوق النهار والشمس سطوعاً. وقد تحول «يوم الربّ» إلى يوم الشمس (Sonntag) كيوم عيد للربّ. وكذلك تتكرر عبارات مثل «من الظلمة إلى النور ومن الضلال إلى الحقيقة» وما شابه ذلك. أما معبد «آدونيس» في «أفقا» بلبنان، حيث كان يمارس طقس البغاء المقدس فلم يعد يستحق رؤية ضوء الشمس، وتم هدمه.

وقد شُبِّه «قسطنطين» بالشمس بشكل مباشر، لأن القيصر يرسل أشعة خُلقه النبيل مثلما يرسل «هيليوس» أشعته الساطعة على الأرض. ونقرأ في موضع آخر أن الله أشعل في خادمه «قسطنطين» نوراً ساطعاً يضيء الظلمة والليل الداكن. وقد ظهر القيصر امام آباء مجمع «نيقيا»، كأنه رسول سماوي من الله في عباءته الأرجوانية المتألقة تألق النور والمزينة بالذهب والمجوهرات المتلألئة كأشعة متوهجة. وكان درع «قسطنطين» وأسلحته التي جاء بها إلى المعركة تلمع ذهباً وعلى رأسه خوذة مزينة بالجواهر.

ارتبطت صورة القيصر الشمسي مع الامبراطورية الشمسية، التي

تسـع جنـوبـاً إلى حـدود بلاد «البليميـين» و«إيثيـوبيـا»، وشـرقاً إلى حدود المعمـورة التي يضيئهـا القيصـر بأشعة تقاه. وتبعاً لذلك نجد الشمس بفضل طلوعهـا وغـروبهـا علامـة تدل على الجهـات والحدود، بمعنى ان بلاد الهند وبريطانيا تتطابق مع طلوع الشمس وغروبها.

والحق ان فكـرة العـالم المسيحي المـوحَّـد، بل الإنسانية الموحدة، تقوم على أســاس تلك التصـورات عن الشمس والنـور. ان الله يجعـل الشمس تسطع ضوءها على الجميع، وفي هذه الحقيقة تكمن وحدة الإنسانية ووحدة الإيـمان. كان «قسطنطـين» يتحـدث عن «بهجـة النـور الصـافي» و«عـذوبة الـوحـدة» التي كان يعني بها وحـدة الإيمان. ان العقيدة التي تنال رضى الله، راعي العـالمـين، لا بدّ من دفعهـا إلى «النـور حتى تتحقق الـوحدة». ويرى القيصـر ان الكنيسـة بنـاء قائم على اثني عشـر عمـوداً وله واجهة عليها ختم بشكل نجم.

وتؤكد التماثيل التذكارية معاني تلك الأقوال وتكملها، ومن ذلك تمثال القيصـر على صورة «هيليـوس»، الـذي أمـر بنصبـه على عمود بورفيري في العاصمة الجديدة «القسطنطينية»، وكان يحمل بيمينه كرة الأرض التي ارتفع عليها الصليب. ويقول النقش المحفور على العمود: «قسطنطين الذي يضيء مثـل الشمس»؛ وكـان نظـر التمثال مرفوعاً إلى الشـمس الطالعة. وهنـاك من الأدلـة التي تشير إلى أنه كان موضـوعـاً للعبادة، كما كانت تقدم له القرابين رسميـاً. ثم يرينـا ميـداليـون (ميـدالية) ذهبي من عام ٣١٣م صورة إلـه الشمس والقيصـر كتـوأمـين. وبـدءاً من عام ٣٢٤م صُوِّر «قسطنطين» على القطع النقدية وعلى بوابة بلاطه وهو ينظر إلى الأعلى رافعاً يديه إلى الشمس كما يفعـل عبـادهـا مما هو معـروف في الـرمـوز الشمسية. وما زال إله الشمس الـذي لا يقهـر يظهر على النقوش القسطنطينية حتى عام ٣١٧م، وهو يظلل القيصر الذي يحمل بيده لواء الصليب. وإلى فترات متأخرة ضربت العملة

المعدنية في دار السك «سيسيا» (Siscia) مع صورة الشمس الطالعة، في الوقت الـذي اصبح القيصـر فيـه يلبس خوذة عليهـا نقش بالأحـرف الأولى لاسم المسيـح . وعلى الكثـير من القطع النقدية نرى صورة النجم الذي ينوب عن الشمس أويرمز إلى الحياة الخالدة. ولمدة طويلة جرى تصوير «قسطنطين» وله هالـة مشـرقة، كما تم تصويره حسب الاعتقاد العام في هيئة حاكم العالم كإله الشمس تماماً.

لا يخفى عن النظـر أصـل كل هذه التصـورات، أوعلى الأقـل لا يصعب علينـا كشف العـلاقـة بينها وبين إله الامبراطورية الشمسي الذي لا يقهـر (Sol Invictus)، والـذي أتى به «أورليان». ولما جاء «قسطنطين» وأحل محل إلـه الشمس الإيـمان بالمسيـح، فانـه كان يهدف إلى توحيـد شعـوب الامـبراطـوريـة. حاول «أوزيب»[1] (Eusebius) بمـوافقـة «قسطنطـين» أن يكشف عن جذور موقفـه من المسيحيـة عنـد والـده، وربـما كان مصيباً برأيه هذا. ولكنـه من الـواضـح ايضـاً ان عبـادة الشمس كانت تلعب دوراً بارزاً بالنسبة لـ «قستانتيوس كلوروس»[2] (Constantius Chlorus). أما بخصوص موقف «قسطنطـين» الـديني بالـذات فلنـا من الشـواهـد مايكفي بين نقوش العملة المعـدنيـة، بالاضـافة إلى قوس النصر الروماني الذي يعطي فكرة عن عبـادة الشمس بشكـل منطقي ومتـماسـك، لا يجاريه فيه أي نصب تذكاري آخـر. كان «قسطنطـين» قبـل تحولـه إلى المسيحية من عباد إله الشمس وكان يفكر في بناء أيديولوجية الامبراطورية على أساس هذا الإله.

يتميز قوس النصر بزخارف على شكل دوائر كبيرة عليها صور للشمس

---

١ ـ ١ ـ أوزيب القيصري : ٢٧٠ ـ ٣٣٩م، اسقف قيصرية فلسطين. اشتهر بكتابة سيرة «قسطنطين الكبير».

٢ ـ قستانتيوس كلوروس: قيصر روماني والد «قسطنطين الكبير». ٣ ـ لاكتانتيوس. كاتب الكنيسة من شمال إفريقيا، توفي بعد عام ٣١٧م.

والقمـر، تعـبر عن قيـام حكم «قسطنطـين» و«ليسينيوس» (٣٠٨ ـ ٣٢٤م) على سيـادة هذين الكـوكبـين في الكـون، وبـالتالي على حتمية مصير العالم واستمـراره، حسب قول «قسطنطـين». وأغلب الأحيـان يظهـر إلـه الشمس إلى جانب الإلهة «فيكتوريا» كإلهة للجيش، حيث يقابل تمثاله النصفي تمثال القيصـر. والقيصـر نفسـه يظهر اثناء حصار مدينة «فيرونا» (Verona) متشبّهاً بإلـه الشمس، ويمينـه مرفـوعـة أو ممتـدة بشكـل آمر نحو العدو، وفي بعض الأحيان تحيط هالة شمسية برأس الحاكمين دلالةً على الجوهر الشمسي.

اذاً كان هنـاك ما يدل على ان «قسطنطـين» حذا حذو «أورليان»، فلا بد لنا من البحث عن ذلك في هذه المواقف. وعلى كل، ليس بالأمر الغريب ان يكون الحاكم المسيحي الأول، في نقاط حاسمة، متأثراً بسالفه الوثني. إلا ان كون «أورليان» سلفاً لقسطنطـين لا يعني أن «قسطنطـين» كان مجرد مقلد له. ومهما كان الأمر، فاننا لا نقصد الانتقاص من خاصية افكار «قسطنطين» وجـدتهـا، كما لن يفلح من يريـد النيـل من منـزلـة الرجل التي صار يحتلها في التاريخ العالمي. كان «قسطنطين» يرى نفسه نقيض سالفه إلى اقصى حد، ولابـد من تقـديـر صحيح لهذا العداء لفهم موقف «قسطنطين». ان «أورليان» هو الـذي أجـبر «قسطنطـين»، من خلال أعماله وتصرفاته على البت في أمور فاصلة، وهو الذي دفع به إلى ان يحل المسائل المطروحة حلاً مشبعاً بالروح المسيحية.

رؤية الصليب

كان «أورليـان» يعتقـد ان أعـمالـه موجهة من قبل إله الشمس، الذي كان مدينـاً له بالسلطـة والـذي كان يمنـح الحكـام الأرجـوان ويحدد لهم مدة حكمهم، وإلـه الشمس أيضـاً هو الـذي استعـاد للامبراطورية بلاد الشرق

الضـائعـة . ولـذا كان القيصـر يعتبر نفسه اداة للمشيئة العليا وممثل الشمس الدنيوي الذي يؤدي وظيفته .

وبـذلـك كانت الفكـرة الأساسية التي قامت عليها مملكة «قسطنطين» قائمة قبل عهده . هي ان القيصر يعتبر خادماً بل عبداً للإله . وقد اختاره الله دون سواه أداةً له ، فإذا هو «مناديه بصوت عالٍ» . ويقـول «قسطنطين» بعد انتصـاره على «ليسنيـوس» (Licinius) : «فقـد رآني الله اداة صالحـة لتحقيق مشيئتـه ، ولـذا تقـدمت منطلقاً من المحيط الأطلسي البر يطاني ، حيث تحدد الطبيعـة للشمس غروبها بعـد تغلبها على الأخطار بفضل قوة عليا . . ، إلى بلاد الشـرق التي استغـاثت بي لأمـد لها يد المسـاعـدة القوية لتخليصها من المعـانـاة الشـديدة التي كانت ترزح تحتها» . ويتابع «قسطنطين» قائلاً : «انني أومن حق الإيمان بأنني مدين لله العظيم بروحي ونفسي وصميم أفكاري» . وأضـاف إلى ذلـك «أوزيب» أن الله قد عيّن «قسطنطـين» قيصراً وحدد مدة حكمه بثلاثة عقود واكثر.

اذا ما غضضنا النظر عن التحول إلى المسيحية ، استطعنا ان نعزو هذه الكلمات إلى «أورليـان» ، لأن كلا القيصـرين كانـا يعتـبران نفسيهـما أداة لإلههما . وكانا يشعران بأنهما يخضعان لتدبير قادر مطلق يحقق مشيئته في العالم والتاريخ . وقد تجلى شعور «قسطنطين» هذا في رؤ ية الصليب .

وصـل إلينـا خبران عن هذا الحدث ، كان صاحباهما من اكثر المقربين إلى القيصـر. فوفقاً لـ «لاكتانتيوس» (Lactantius) دعي «قسطنطين» قبيل معركة «ميلفيان» (Milvian) الفاصلة إلى وضع «الإشارة السماوية» على درع جنوده المتقـدمين إلى المعركة . وعمل القيصر بهذه التعليمات «فوضع الحرف (X) عرضياً ، وثنى جزءه الأعلى ليحصل على اشارة المسيح التي رسمها على الدروع» . هذا هو النص المنقول حرفياً ، وهو نص واضح كل الوضوح ، وأية إضـافـة تؤدي إلى تزويـره . وان الحـرف (X) في وضعه العرضي يتخذ شكل

الصليب، وبثني جزئه الأعلى يتحول إلى الحرف (P) .

يشترط هذا التفسير أن تلك «الإشارة السماوية» كانت الصليب، إلا ان «قسطنطين» لم يكتف بالصليب وحده بل صنع منه إشارة المسيح المركبة من الصليب والحرفين الأولين لاسم المسيح . وتؤكد صحة هذا التفسير كثرة استعمال هذه الإشارة مع الصليب بنفس الشكل في عهد «قسطنطين» وبعده .

بين العملة القسطنطينية نعثر لأول مرة على الحرفين الأولين لاسم المسيح على ميداليون فضي من «تيسينوم» (Ticinum) يعود تاريخه إلى عام ٣١٥م . وقد تزينت بهما خوذة القيصر في دائرة على الجبهة، حيث يتوسط الحرف (P) عمودياً الحرف (X) في وضعه العادي . وتختلف هذه الإشارة عن وصف «لاكتانتيوس» القائل بالدمج بين الصليب وحرفي الاسم، حيث يظهر على الميداليون المركب على الخوذة الحرفان منفصلين عن الصليب الذي يعود إلى صولجان القيصر . وهناك خبر ثانٍ عن رؤية الصليب يقول ايضاً بمثل هذا الفصل بين حرفي الاسم والصليب .

يروي «أوزيب» بناء على ما اخبره القيصر نفسه عن رؤيا حدثت له وسط النهار في بلاد الغال . ويدور الحديث بشكل واضح حول الصليب والبشارة بالانتصار تحت هذه الشارة . واما في رؤيا ثانية ليلاً، فيظهر لـ«قسطنطين» المسيح الواقف إلى جانب الصليب ويدعوه إلى تقليد ما تراءى له واستعماله اشارةً في الحرب .

نلاحظ فرقاً واضحاً بين هذا الخبر الأخير والخبر المنقول عن «لاكتانتيوس» . .هنا لم تحدث الرؤيا في المساء السابق للمعركة وانما في وقت اسبق بكثير . كما ان الخبر يقول برؤيتين وليس برؤيا واحدة، والداعي الذي لم يذكر «لاكتانتيوس» اسمه هو المسيح نفسه . إلا ان هذه المرة ايضاً ينفذ «قسطنطين» الأوامر فيطلب بصنع الراية الشهيرة باسم «لابروم» (Labarum)

ونجد عند «أوزيب» وصفاً لصنع الراية من عمود مكسو بالذهب ركب عليه عمود آخر أفقياً فصار صليباً، ووُضِع في أعلاه إكليل مصنوع من الذهب والمجوهرات. واحيط هذا الإكليل بحرفي اسم المسيح الأولين المشكلين بالطريقة التي رأيناها على الميداليون من «تيسينوم». واصبح القيصر فيما بعد يزين خوذته بهذه الإشارة. وهنا ايضاً نجد الصليب وحرفي الاسم الأولين منفصلين عن بعضهما.

وفقاً للخبر المنقول بقلم «أوزيب» يتلقى «قسطنطين» دعوة إلى تقليد الصليب السماوي، الذي يضيف إليه حرفي اسم المسيح الأولين. وهذا منطقي نظراً إلى ما أمره به المسيح في الرؤ يا الثانية الليلية. اما «لاكتانتيوس» فلم يذكر اسم الذي تراءى للقيصر آمراً في الحلم، غير ان الأمر ينص أيضاً على تقليد «الإشارة السماوية» وهي الصليب، ومع ذلك يصنع القيصر إشارة المسيح المركبة. أليس واضحاً ان «لاكتانتيوس» يقصد بذلك الواعظ المجهول الاسم أيضاً المسيح؟

وعلاوة على ذلك نجد هناك تطابقاً ملفتاً للنظر بين هذه «الإشارة السماوية و«الصليب كرمز للانتصار الذي ظهر في السماء فوق الشمس»، تبعاً لرواية «أوزيب».

ويمكننا القول بأن الرؤ يا قبل معركة قنطرة «ميلفيان» التي وصفها «لاكتانتيوس» والرؤ يا الثانية وفقاً لرواية «اوزيب» متشابهتين في كلتا الحالتين، لما فيهما من عناصر الحلم وتجلي المسيح والأمر الذي يصدره. أما الفرق بينهما ان الأوامر في الحالة الأولى تقول بوضع الصليب على الدروع وفي الحالة الثانية بوضعه على الراية. ولكن في الحالتين أضيف إلى الصليب حرفان من اسم المسيح بشكل أوبآخر. وهكذا تقف الراية (لابروم) والدرع المميز بالإشارة المسيحية جنباً إلى جنب.

لا يتحدث «أوزيب» عن الـ«لابروم»، ولكن «قسطنطين» نفسه

يعبر في أقواله عن وجود الشكلين (الراية والدرع) جنباً إلى جنب. ففي رسالة إلى ملك الفرس يتحدث «قسطنطين» عن الإله واشارته التي يحملها الجيش المقدس «على الكتف». وكان يقصد بذلك الراية التي كان يحملها بالدور رجال حرس القيصر على اكتافهم. وأما كلمة «قسطنطين» التي قال فيها: «صورتك امامي في كل مكان وقفتُ فيه على رأس جيش منتصر»، فانها تدعونا إلى ربطها بالدروع.

اننا لنعثر على وجود الراية والدرع معاً عند إله الشمس ايضاً. تظهر على ثلاثة نقوش بارزة موجودة على قوس «قسطنطين» في روما صورة الراية وعليها «إله الشمس الذي لايقهر» و«الإلهة فيكتوريا». وتحت هذه الراية يتقدم جيش القيصر باتجاه العدو. ومن المؤكد ان هذا الشكل يعود إلى «أورليان» الذي ادخل رموز الدروع المتعلقة بالشمس ومسارها، وبالكواكب بشكل عام، إلى الجيش الروماني في الفترات المتأخرة.

وكما رأينا سابقاً، لم يقتصر استعمال هذه الرموز على النماذج المنقولة من الشرق والعصور القديمة، وانما قد ضم إليها «أورليان» على نطاق واسع رموز شعوب البلدان الشمالية التي منها الإلليريون والسلت والجرمان. وتدل مراعاتها على الدور الهام الذي لعبته هذه الشعوب في الجيش بفضل السياسة التي اتبعها «أورليان». وقد سبق «أورليان» بتقريبه الجرمان ماقام به «قسطنطين» من بعده. ثم حذا «قسطنطين» حذو سلفه باستخدامه الجرمان في الدفاع عن الحدود ومحاولة ضمهم تحت راية الدين المسيحي. بذلك يشكل كلا القيصرين نقطتي علاّم في المرحلة الانتقالية من العصور القديمة إلى العصر الوسيط. يقول «أميانوس مارسيلينوس»[٤] (Ammianus Marcellinus) عن ما

---

٤ ـ أميانوس ماريسيلينوس: مؤرخ روماني (توفي حوالي عام ٤٠٠م) أكمل مؤلفات «تاسيتوس»، التي تنتهي بعام ٩٦م، فوصل بها إلى عام ٣٧٨ (بقي منها تاريخ عامي ٣٥٣ ـ ٣٧٨م).

كان الرجلان يتميزان به «إن مجدِّد القوانين والثائر على العادات القديمة بدأ يتحرر من الروابط التي كانت تربطه بالحضارة الرومانية، بينما كان «أورليان» يتمسك بها بوعي».

يبدو تحول «قسطنطين» إلى المسيحية كأنه ظاهرة جديدة كل الجدة في التاريخ. والحق ان تطور المسيحية كان حتى الآن من الأسفل إلى الأعلى، أما هذه المرة فيأتي الانقلاب من الرأس حيث يأخذ سيد الامبراطورية، أعظم رجل في زمانه، بزمام الحركة. فقد ناصره المسيح هو شخصياً، فردّ له «قسطنطين» الجميل أول الأمر بمنح عباده المساواة مع الديانات القديمة، ثم باعطاء الدين المسيحي مكان الصدارة. وهو موقف آخر قد سبقه إليه «أورليان» عندما رفع بإرادته من شأن «إله الشمس الذي لا يقهر». وهكذا أنشئت الديانتان الجديدتان من الأعلى بإرادة الحاكم بالذات.

واذا صح ما ذهبنا إليه، يجب ان نعيد النظر في تقييم «قسطنطين». لا شك في ان اهميته في التاريخ تكمن في تحقيقه وحدة الدولة والكنيسة. إلا أننا يجب أن نضيف إلى ذلك أن الخطوط الرئيسة قد رسمها «أورليان» قبله، وانه ليست المسيحية هي التي اتت بالجديد، وانما الوثنية التي كانت في مرحلتها الأخيرة تملك من القدرة الإبداعية ما مكّنها من احراز قصب السبق هنا ايضاً. وما حدث في روما يمكن ملاحظة حدوثه عند جارها الشرقي، ففي الوقت الذي اصبحت فيه ديانة الشمس الديانة الرسمية في روما، جعل الساسانيون الزرادشتية المطهرة والمجددة ديانة مملكتهم. وهكذا دخلت روما وإيران، «عينا العالم»، في نفس الوقت مرحلة جديدة من تاريخ الدين.

لم يكن تأثر «قسطنطين» بأحد كبار اعداء المسيحية (وهذا ما كان عليه «أورليان») التناقض الوحيد وانما هناك تناقض ثانٍ، ليس على الصعيد السياسي أو العسكري ولكن على الصعيد الفلسفي: كان «فورفوريوس»، عدواً ثانياً للمسيحية، يلعب دوراً هاماً في تكوين آراء «قسطنطين».

الأفلاطونية المحدثة

تبدأ الخطبة التي يتناول فيها «أوزيب» حكم «قسطنطين» الذي دام ثلاثين عاماً بصورٍ تصف قوة الله النورانية وسطوعها. ويتوارى وجه الله خلف ستار من أشعة الضوء ولمعانها، ويلف الضوء الجوقات السماوية من ملائكة وقديسين .وفي مركز السماء يجتمع كل النور الإلهي والروحاني ويمجد الرب بتراتيله. ولكن قبة السماء تبدو كستار داكن تغطي هذا المشهد، ويحتجب بلاط الله الحقيقي عن الأنظار. إلا ان الشمس والقمر يقومان في بهوه بوظيفة حامل الشعلة خاضعين للمشيئة العليا خادمين لها. ثم نقرأ في موضع آخر ان الشمس الساطعة على كل مكان تُري ان الله هو السيد الوحيد، وهي لا تجرؤ على تجاوز المسار المحدد لها. ويقف القمر والنجوم نفس الموقف مبشرين بالله الذين ينبعث عنه الضوء كله. وكان «اللوغوس» هو الآخر ضوءاً، ذلك الضوء الذي أحاط بالآب وفرّق بين الخلق المكوّن والمادة غير المنظمة السابقة عليه، والذي تفوق حكمته الشمس لمعاناً. ويرسل القيصر (صورة الله الدنيوية وصورة نظامه) أشعته كالشمس إلى اقصى انحاء المعمورة. وان حاملي هذا الضوء المنبعث عن القيصر الحاكم (الأغسطس) هم القياصرة الأربعة (المشاركين في الحكم) الذين يقود «قسطنطين» عربتهم مثل الشمس. وبعد سلسلة من التشبيهات الموجزة، المستمدة برمتها من الخيال نفسه، يأتي وصف المملكة السماوية، حيث تحيط بالرب جيوش من الضوء الذي لا يمكن قياسه، والذي لا ينبعث عن الشمس بل هو اقوى منها لأنه

متدفق من منبع خالد. انه ليس الشمس ولا القمر ولا النجوم التي تسطع بضوئها على ساكني السماء، وانما «اللوغوس» الذي هو ابن الله الوحيد.

هنا نسمع نغمة جديدة. كان النور في رأي أسقف القيصرية (أوزيب) اكثر الأشياء جوهراً وروحاً، فأصبحت له منزلة اعلى من الشمس والكواكب. كان النور ينتسب إلى الله واللوغوس، واما الشمس فلم تكن سوى خادمة لهما. ولعل «أوزيب» كان يعتمد في هذا الرأي على سفر التكوين التوراتي، حيث فرّق الرب أول ما فرّق بين النور والظلمة ثم خلق الشمس والقمر بعد ذلك. ومما ساعد على وضع هذه النظرية أنه لم يكن قد مرّ بعد وقت طويل على كون إله الشمس (Sol Invictus) الاله الأعلى للامبراطورية وعدو العقيدة المسحية ومنافسها. وربما شعر «اوزيب» برضى عن انزال الشمس إلى المرتبة الثانية، واظهارها خاضعة لقوى عليا وتركها دون النور الإلهي منزلةً.

المهم هو ان الشمس بقيت إلهاً في اعتقاد «أورليان» في حين تحولت هنا إلى صورة ومَثَل، واحياناً إلى مرؤوس لله وخادمه. فليس الله والشمس من جوهر واحد، وانما نسمع على لسان «اوزيب» واحياناً على لسان القيصر انه على الشمس ان تخضع لأوامر الله. وقد يعترض البعض بالقول ان مثل اعادة التقييم هذه قد نتجت عن تحول «قسطنطين» إلى المسيحية، وجوابنا على ذلك ان التفريق بين الله والشمس قد تم قبل «قسطنطين» في التفكير الفلسفي في ذلك العصر،حيث اعطيت للشمس منزلة دون منزلة الله والواقع ان الأفلاطونية المحدثة كانت قد خططت لكل الآراء والتفصيلات التي يقدمها «اوزيب» ورتّبتها في نظامها الفكري.

ونقصد بذلك كتاب «فورفوريوس» الآنف الذكر: «فيما يتعلق بالشمس»، كان عمل فورفوريوس الحاسم أنه عيّن للشمس مرتبة دون مرتبة الإله الروحاني ذي الطابع الأفلاطوني المحدث، فأصبحت الشمس صورة

لكـائن الأعلى ووسيطـاً بينـه وبـين بقيـة العـالم، والمسؤول عن كل عمـل ونشاط، وانفصل «هيليوس» عن الروح الإلهي المكتفي بنفسه، واصبح اول خالق ومنفـذ. وقـد تم تأليف هذا الكتاب قبل ادخال إله الشمس الأورلياني إلى رومـا، إلا ان القيصـر الإلليري العسكـري لم ينتبـه لما كتبـه الفيلسـوف الصوري في كتابه، ولا غرو اذا قلنا انه لم يسمع عنه شيئاً البتة. ولا نستطيع البت فيما اذا كان «قسطنطين» على علم بأفكار «فورفوريوس»، او انه اطّلع على كتـاب «يـامبليخـوس» (راجـع ص ١١١) أوعلى كتـاب آخـر من هذا النـوع. ولكن لا شك في ان المقـربـين إلى القيصرومنهم «أوزيب» والمكلفين بالمـراسم واعـداد خطب القيصـر، ثم خطبـاء بلاد الغـال الذين كانوا يلقون خطبهم باللغة اللاتينية أمام القيصر وهوما زال على الدين الوثني، لا شك في ان كل هؤلاء كانـوا على اطلاع بتعاليم «فورفوريوس» والأوساط الأفلاطونية المحدثة في الشرق.

تنص الكلمـة التي ألقيت أمـام القيصـرعام ٣١٠م في مدينـة «تـرير» (Trier) (ألمانيا)، على أن تعيين «قسطنطين» تم لخير الدولة وبمشيئة الآلهة، ولم يأته خبر تنصيبه بواسطة البريد القيصري وانما تم نقله بمركب إلهي. ومن الـواضـح ان في ذلـك تلميحاً إلى عربة الشمس، غير ان القول لا يخرج عن التعبـير الخطـابي البليـغ. ولا نجـد كلمـة واحـدة تقول (كما كان «أورليان» يقول) بأن «قسطنطين» يستمد سلطته من إله الشمس كسيده وموجّهه. وفي فترة قصيرة بعد ذلك يقول الخطيب نفسه إن الشمس في الشمال ـ وكان يعني بريطانيا ـ لا تغيب ابداً، فيطول النهار، والليل ايضاً لا يفارقه الضوء، وبينما تميل الشمس في الجنوب إلى الأسفل، تمرّ في الشمال بالناس مروراً. ويتابع: «أيتها الآلهة، ترى ما هو السبب في ان تهبط الكائنات الإلهية الغربية دائماً إلى أقصى الأرض حتى يعبدها الإنسان؟ هكذا ظهر «مركور» آتياً من منابع النيل

المجهـولـة و «ليـبر»[٥] (Liber) من بلاد الهنـود، الـذين يعرفون أسرار الشمس الطـالعـة، أمـام الشعـوب كإلهـين حاضرين في كل مكان. حقاً، ان الأمـاكن المجـاورة للسـماء اكثـر قداسـة من البـلاد المحيطـة بالبحـر الأبيض المتـوسـط، وان القيصـر الذي يأتي من اقصى الأرض مبعوث من مكان أكثر قرباً من الآلهة». يلاحظ في هذا النص تلميح آخر إلى الشمس بصورة تمثيلية لا تتجـاوز حدود فن البـلاغـة. وهنـا أيضـاً لا يظهـر إلـه الشمس في صورة واضحة تبرز دوره الكبير.

كذلـك يلمِّـح الخطيب الذي ألقى كلمته أمام القيصر عام ٣١٣م إلى الشمس. وكانت حملات «قسطنطين» وانتصارته قد اثارت حماسه وهو يقول: «من أين لك هذا الـدأب الـذي لا يهدأ؟! أيـة ألوهة وراء هذه الحركة التي لا تنتهي؟ ان كل الأشيـاء تتمتـع بفـرصـة اسـتراحة، فالأرض ترتاح كل تسع سنين، والأنهار يتوقف أحياناً جريانها، وحتى الشمس نفسها ترتاح في الليل. أمـا انت يا «قسطنطـين» وحـدك تخوض حربـاً بعد حرب وتحقق انتصاراً بعد انتصار بلا كلل ولا ملل». فهنا نرى ان القيصر يفوق الشمس، والخطيب لا يفكر في اعطائها مرتبة خاصة، انها تفوق القوى الطبيعية فقط، مثل الأرض والأنهار، إما «الألوهة» فمنزلتها أعلى من منزلة الشمس.

علاوة على ذلـك تظهـر تلك الألـوهة كـ «روح إلهي». وقد وقف هذا الـروح الإلهي إلى جانب «قسطنطـين» حتى انتصـر على «مـاكسينتيوس»[٦] (Maxentius)، ووضـع حداً لبطش هذا الطـاغي. «أي إلـه، أية قوة دعتك

٥ ـ ليبر: إله الخصب الإيطالي القديم. اندمج فيها بعد مع «ديونيسوس». (المترجمة).

٦ ـ ماكسينتيـوس، ماركـوس أوريليـوس فالـير يـوس: ٢٧٩ ـ ٣١٢م قيصـر روماني هزمه «قسطنطين» في معركة قنطرة ميلفيان. مات غرقاً وهو يهرب.

إلى اخذ القرار بتحرير المدينة رغم ارادة الناس، ونصائح الـ «هاروسبيس»[٧] (Haruspices) ، ورغم تذمر ضبـاطـك بصـوت مسموع وابدائهم مخاوفهم؟ حقاً، انك على اتفاق سري مع ذلك الروح الإلهي الذي يترك رعايتنا لآلهة دنيـا ولا يظهـر لغـيرك». ولا علاقـة بين هذه الألـوهة المذكورة في النص وإله الشمس، ولكنه تعلو الآلهة الأخرى التي تقوم بأعمال محددة.

كان الـرأي العـام ان في كلمـة هذا الخطيب تعبـيراً عن شعـور اول بالتحول الديني القادم. ولكن ذلك الخطيب الذي ألقى كلمته عام ٣١١م او في بدايـة عام ٣١٢م أمـام القيصـر في «أوغسطـودونوم» (Augustodunum) ، كان يعـرف التصـور نفسه عن الروح الإلهي الذي يحكم عالمنا بأسره، وليس هنـاك دليـل على أنـه يخاطب قيصـراً له ميـول مسيحية. تصف هذه الخطبة بالـذات رؤيـا «قسطنطين» لـ«أبولو»، تلك الرؤيا الوثنية التي تصدّت لها فيما بعد رؤيا الصليب المسيحية.

ولكن الـذي يتبـين لنا هو شيء آخر يتمثل في آراء الأفلاطونية المحدثة التي أتى بها «فـورفوريوس» والتي تعود الى «الهرمسيين» و«يامبليخوس» ونراها في خطبة «جوليان» التي تتناول موضوع «الملك هيليوس». لم يعد «هيليوس» هذا صاحـب المنـزلـة الأولى، بل تحول إلى صورة اومَثـل يعكس الإلـه الأعلى، واصبـح هو الإلـه الثاني ووسيطاً بين الإله الأعلى والآلهة الأخرى، التي لكل واحد منها وظيفته الخاصة به، انها «الآلهة الدنيا» التي ورد ذكرها في الخطبـة المـذكورة اعلاه. وعندما يظهر «مركور» و«ليبر» و «إله الشمس» معا، ويسمى الهنـود، الـذي جاء منهم الإلـه «ليبر»، بـ «العارفين بأسرار الشمس الطالعة» أفليس واضحاً ان هناك تطابقاً مع أفكار «فورفوريوس»؟

---

٧ ـ الهـاروسبيس: كانـوا في الأصـل كهنـة الأتـروسـك الـذين تنبؤوا بالمستقبل عن طريق فحص الكبد. (المترجمة).

قوس «قسطنطين»

تكثـــر على قوس «قسطنطـــين» في رومـا صور الـه الشمس والقيصـر الشمسي . ونعود لنذكر هنا انه في رأينا لا يوجد نصب تذكاري رسمي يعبر، مثل قوس «قسطنطين»، عن الديانة الشمسية المصطبغة بالأفلاطونية المحدثة بهذا الشكل المنطقي والمتماسك . يرجع هذا التعبير الفني إلى زمن لم يكن فيه كتـاب «فـورفوريوس» معروفاً بعد، ولم يعرف اصحاب تلك التصورات شيئاً عن أن إلـــه الشمس لم يعـــد يمثـــل المبـــدأ الأول في نظـر «فـورفـوريـوس» والأفلاطونيين المحدثين عموماً .

طبعاً كان لا يمكن ان يظهر الإله الأعلى الواحد على النقوش البارزة مثـل الآلهـة الآخرى، لأنه لم يكن له شكل مرئي ولا اسم، فصورته تنعكس على الخلق بأجمعـه . ويختلف الأمـر مع إله الشمس الذي يمكن تصويره لأنه «صـورة» الإلـه الأعلى ووسيطـا بينـه وبـين بقيـة عالم الآلهة والبشر. ولذا لا عجب في سيطرة «هيليوس» على النقوش البارزة التي اختصت بها هو مرئي . ولكن هنـاك موضعـا واحدا يدل على وجود الإله الأعلى وهو الكلمة المكتوبة على القوس .

وتقـول هذه الكلمـة بأن «قسطنطـين» حقق نصـره بفضل «Instinctu divinitatis» . كان التفسير المألوف لهذه الكلمة هو ارجاع انتصار «قسطنطين» على «مـاكسينتيـوس» (عمـل القيصر التحريري) إلى «ايحاء الألوهة»، وقيل انه تعبير عن شعور أول بالتحول الديني . .

يعـارض هذا التفسـير أن الكلمـة «divinitas» لا تعني الألـوهـة وانـما الجوهر الإلهي الذي يقابله الجوهر الإنساني المعبر عنه بالكلمة «humanitas» ، والحق ان «قسطنطـين» لم يحقق انتصـاره بفضـل ايحـاء الـروح الإلهي فحسب، وانـما ايضـاً بفضل «عظمة عقله» Mentes Magritudine ، فاتحد في عمله العنصـر الإلهي والإنسـاني. ان «الجوهر الإلهي»، اوكما يقول الخطباء، «الـروح الإلهي» هو الـذي وجّـه روح «قسطنطـين» الإنسـاني وجعله عظيماً. ويعـبر الهـرمسي عن الفكرة نفسها عندما يقول ان الروح الموجود في الإنسان هو الله، حتى يمكن اضفـاء الألـوهـة على بعض الناس لتشابه جوهرهم مع الجوهر الإلهي.

ان هذه الأفكـار هي افكـار الأفلاطونية المحدثة ولا غير. لنتصور فقط ان الكتـابـة المـوجـودة على قوس النصـر وحـدهـا كانت تلمّـح إلى موقف مسيحي، بينـما ترينـا صور القـوس آلهـة من كل نوعٍ ومن بينها إله الشمس. يقـول «هـ. ب. لـورانـج» (H.P.L'Orange) تعليقـاً على هذه الصـور: «ان الشمس والقمـر المـوجـودين على هذه النقـوش البـارزة لا يحيطـان بالحـدث العـالمي الخـارجي فحسب، بل يضـمان ايضـاً الطبيعة وحياة البشر إلى نظام النـواميس الكـونيـة التي تصـدر عنهـما». أمـا الآلهة الأخرى ـ أمثال «أبولو» و «ديـانـا» و «هرقل ـ سيلفانوس» و «مركور» ثم ايضاً «أوقيانوس» و «تيللوس» و «لوسيفير» و «هيسبير وس» ـ تخضع للقوى الكونية وخاصة للشمس. ان هذه الصور تتطابق تماماً مع الصورة التي رسمها «فورفوريوس».

كذلك رأينا هذه الصورة عند خطباء ذلك العصر الذين كانوا يسمون الإله الأعلى الذي يتراءى للإنسان «الجوهر الإلهي» و «الروح الإلهي». ومن الـواضـح ان هذا ايضـاً أفـلاطـوني محدث، قد عبر عنـه الخطبـاء في وقت لم يتداخل فيه بعد أي عنصر مسيحي مع صورة القيصر.

وبهـذا ننتهي إلى نتيجـة واحـدة. إلا ان هذا لا يصـح فيما يتعلق بتصـورات القيصر المسيحية. كان «قسطنطين» الذي عاش في مرحلة انتقالية متأثراً بالقديم، حتى في الحالات التي يبدو فيها رائداً للجديد. لقد بيّنا كيف استمـرت تجربـة الـه الشمس تؤثـر في القيصر في العصر المسيحي، ولاحظنا كثرة استعمال العبـارات والتشبيهـات المتعلقة بالشمس ونورها الإلهي حيثما اتفق. والغـريب في الأمـر أنه ليست فكرة الشمس وحدها وتألقها هما اللذان استمّـرا، بل كذلـك خضوع الشمس لمشيئة الإله الأعلى والمقارنة بين «ايحاء الجـوهـر الأعلى» و«عظمـة العقـل (الإنسـاني)»، ولم يتردد «أوزيب» في استخـدام هذه العنـاصـر مراراً وتكـراراً، محوّلاً بذلـك الفكـرة المستمـدة من الأفلاطونية المحدثة إلى الشكل المسيحي.

هنـا يجب ان نكتفي بالإشـارة إلى اننـا نصـادف أيضاً كثيراً من أفكار المذهب الأفلاطوني المحدث في مراسيم «ميلان»، التي منحت بها للمسيحين حرية الممارسة الدينية، او في خطبة «قسطنطين» المشهورة التي اعاد بها تفسير قصيـدة الـراعي الرابعة لـ «فيرجيل» بمعانٍ مسيحية. وهذا يعني انه بالنسبة لهذا الـرجـل لم يكن هنـاك تنـاقض كبير بين العقيدتين، الأفلاطونية المحدثة والمسيحية. صحيح، ان «فورفوريوس» كان عدواً لدوداً للمسيحيين، إلا ان الأفـلاطـونيـين المحـدثين وخصومهم المسيحيين كانوا مثل أخوين متعاديين، بكـل الحنق والتشـابـه المـدهش المألـوفـين عنـد الإخوة. كان «فورفوريوس» المـدافـع عن الـوثنيـة، يظن نفسـه على أرضية متينة قائمة على التعليم عن الآلهـة القـديمـة، وكـان يعتقد انه قد قام بتطهير هذا التعليم ووضع أساسه الفلسفي. ولكن حدة ذكـائـه ومعلوماته اللغوية الثمينة وتمكنه منها، قد أدت به إلى نتيجـة غير متـوقعـة، ألا وهي ان كل الآلهـة أنـزلت إلى المرتبة الثانية وفقـدت قيمتهـا في وجـه إلـه الشمس. ثم كان على إله الشمس نفسه، آخر ابداع الوثنية الكبير، ان يتنازل عن منزلته لصالح الروح الواحد غير المرئي -

بتعبير آخر: ان يتنازل عنها لله . وهكذا مهّد «فورفوريوس» عن غير قصد
الطريق لعالم جديد .

كلمة موسوعية
الديانة الكلاسيكية المتأخرة

لم تصبح الديانة الكلاسيكية المتأخرة موضعاً للبحث إلا في قرننا. ولقد حقق الـرواد، أمثـال «رايتـز نشتـاين» (Reitzenstein) و «ف. كومـونت» (F.Cumont) و «ي. بيـديـه» (J.Bidez) نتـائج لم تفقـد أهميتها. ومع ذلك لم تفلح دراسـة الـديـانـة الكـلاسيكية المتأخرة في ان تصبح فرعاً علمياً مستقلاً يدرس في الجـامعـات، بل سمّيت في أحسن الأحوال لجنةً اكاديمية باسمها فقـط. وهكـذا يبـدو ان المسـاعي التي بدأت في أوائل قرننا مبشرة بالخير، ما زالت بعيدة عن تحقيق هدفها. واما اسباب ذلك فكثيرة ومتعددة.

ومن هذه الأسبـاب ضخـامـة المـادة، واستحـالـة الحصـول على كل الـوثـائق العـائـدة إلى الـديـانات الكلاسيكية المتأخرة بشكل مرضٍ. ولذا اصبحت المطبـوعـات مثـل «التـاريخ الكنيسي» لـ «أوزيب» (إد. شفارتز ـ Ed. Schwartz) وبعض الكتابات الزرادشتية (ي. بيديه وف. كومونت ـ J. Bider, F. Cumont والأبحـاث الهـرمسيـة (أ. ي. فيستـوجيـير وأ. د. نوك ـ A. J. Festugière, A. D. Nock) عالية القيمة بحق، إلا ان مثل هذه الكتب ما زالت نادرة. وحتى الآن لم يستكمـل بعـد كتـاب «ي. بيـديـه» الذي يتناول أعـمال القيصـر جوليـان الأدبيـة، كما ان مراجعـة الأدب الـروائي في المـرحلة الكـلاسيكيـة المتأخـرة، التي لها بالنسبـة لتـاريخ الديانة أهمية كبرى، لم تتم اعـادة النظـر فيهـا إلا في الفـترة الأخـيرة (ك. كيريني وف. تزيمـرمـان ـ K.Kerényi. F.Zimmermann).

يضـاف إلى ذلـك انـه لم يعـد ممكنـاً كتـابة تاريخ الديانة الكلاسيكية المتأخـرة بعُـدَّة عالم العصور القديمة العادية. فلا تكفي مثلاً ـ على أهميتها ـ معـرفة اللغة اليونانية واللاتينية وحدها، لفهم نصوص مثل النصوص المانوية المـكـتشفـة في آسيـا الصغـرى التي بدأ بتحقيقهـا «ف. ف. ك. مـوللر» (F.W.K.Müller) و«ث. سالمـان» (C.Salemann) و«ف. ث. أنـدريـاس» (F.C.Andreas)، ثم تابع العمل بها تلاميذ الأخير، ذلك ان هذه النصوص وحـدهـا تتطلب معرفة غير عادية باللغات الشرقية. كان «ماني» نفسه يكتب باللغـة الأدبيـة السـوريـة (الآراميـة) واحيـانـاً باللغـة الفـارسيـة الـوسطى (البهلويـة). ولم يمض إلا وقت قليـل حتى ترجمت مؤلفاته إلى اللغة البارثية والسُغـديـة والـتركيـة القـديمة والصينية. أما الترجمة القبطية فكانت الترجمة الأولى التي شملت كتب «مـاني» بأكملهـا. وعثـر في أرض مصر الغنية بالآثار على آخـر مجمـوعـة كتـابـات غنـوصيـة، وهي مكتوبة ايضاً باللغة القبطية. ويضـاف إلى ذلـك كتـابـات المـانـديـين[8] المكتـوبـة بلهجـة آراميـة شرقيـة (م. ليـدزبـارسكي، M.Lidzbarski). وماهو أهم من كل ذلك هو ترجمـات الأدب العربي الكثيرة التي استرجعت لنا مؤلفاً ضائعاً من مؤلفات الفلسفة الكلاسيكية المتأخرة، وهو كتاب يحتوي على نظريات «أفلاطون» و«أرسطو» وبعض آراء الأفلاطونية المحدثة. كما تم في العقود الأخيرة اكتشـاف الحضارة العـربيـة قبـل الإسـلام، وبعد الانتهاء من دراسة معاني الكتابات المكتشفة في شمال شبـه الجـزيـرة العربية وجنوبها على يد «إ. ليتمان» (E. Littmann) و«ن. رودوكاناكيس» (N. Rhodokanakis) والعالِمَيْن «ريكمان» (Ryckman)، يمكننا ان نضع دعوة «محمد» في سياق التاريخ الديني الذي تنتمي إليه.

أول من استطـاع ان يقـدم على رسم صورة متكـاملة للكـلاسيكيـة

---

٨ ـ المـانـديـون: طائفـة غنـوصيه معمودية قديمة تجمع بين مذاهب متعددة وانتشرت عند الفرات الأسفل والدجلة. تبلغ جماعتهم اليوم حوالي ٤٠٠٠ عضو. (المترجمة).

المتأخـرة هو «إ. جيبـون» (E.Gibbon) مؤلف «اضمحـلال الامـبراطـوريـة الـرومـانيـة وسقوطها». أما اليوم فليس هناك من يستطيع ان يدّعي بأن لديه ادنى حد من المعلومات اللغوية الضرورية لدراسة تاريخ الديانة الكلاسيكية المتأخرة. ولـذلـك فقـد اقتصرت الجهود حتى اليوم على اعمال الإخصائيين الجزئية التي لا نشك في مستواها العالي. ولكن احداً لم يقدم بعد على تحقيق عمل جامع في هذا الفرع من دراسة التاريخ (بناء على رأي جيبون).

أمـا بالنسبـة لوضـع المسيحية الخاص، فاننا على يقين من ان احداً لا يشـك في امتـداد جذور الـدين المسيحي إلى الـديـانة الكلاسيكية المتأخرة، ولكن المستعـدين للتمسـك بهذا الموقف قليلون، ولا يزال الإدّعاء بان الدين المسيحي هو الدين الحقيقي يحول دون الأخذ باستنتاجنا الأخير هذا. وذلك لأنـه كثـيراً ما اهمل التقليـد العـريق الملزم في تاريخ الفكر الأوروبي، والذي يتطلب التصـدي حتى لقضـايا التراث القديم والموروث المحبب إلى القلب بالنقد الصارم والموضوعية.

وفي الـوقت الحاضر تتوصل علوم الكتابات القديمة، والبرديات وعلم الآثار، في كل عام إلى اكتشافات جديدة مدهشة. وقد كشف علماء سوفيات عن حضـارات الخـوارزم والكسـر البـارثيـة القديمة من «نيسا» (Nisa)، كما ظهـرت حديثـاً الطبعـة الأولى من كتـابـات «ينساي» المـوثقـة باللغة التركية القديمة، بما فيها من مادة دينية غنية (س. إ. مالوف ـ S.E.Malow)، وبوشر بكتـابـة مؤلَّف شامـل عن حضـارة جنـوب سيبـيريـا القديمة (أ. كيزليف، A.Kiselew). ولقـد القت الحفـريـات في «هترا» ضوءاً على اقدم دولة عربية بمعابـدهـا وعالَم آلهتها الرحب. فظهر هناك في بلاد ما بين النهرين في القرنين الثـاني والثـالث الميـلاديـين اسـما «الله» وصـاحبته «اللات». واذا كانت لغة «هـترا» الـرسميـة آنـذاك هي اللغـة الآرامية، إلا ان أسماء الآلهة واصحاب الـرسـائـل التبشـيرية والملوك المذكورة في النقوش المكتشفة تدل على ان اهل

هذه الدولة عرب .

لقد عالجنا في هذا البحث مسألة واحدة من مجمل القضايا المتعلقة بتاريخ الديانة، وحرصنا ان نوضح مواجهة الوثنية الكلاسيكية المتأخرة مع الكنيسة المسيحية الرسمية الناشئة، فتعدى هذا العرض البحث الديني إلى القضايا السياسية والمسائل الأدبية والفلسفية، ولم نكتف بسرد مجرى الأحداث سرداً زمنياً، بل توسعنا بالقاء النظر على الظواهر المتزامنة، هادفين من وراء ذلك إلى رؤية الأشخاص والشعوب الفاعلة والمؤثرة في مجريات الأمور ضمن ظروفها الخاصة، وإلى تحقيق ما دعونا إليه في سبيل كتابة تاريخ الديانة .

باميكة - هيرابوليس
حلب
خالكيس
أفاميا
العاصي
اللاذقية
حماة
حمص
تدمر
بعلبك
البقاع
بيروت
دمشق
الصفاء
اللجاة
حوران
صور
سورية

إله الشمس في منطقة البحر الأبيض المتوسط

. . . أما إلى متى استمرت حيوية المدينة السورية دافقة ومؤثرة في محيطها وفي المحيط الأوسع ، فهذا ما يجيب عليه هذا الكتاب من خلال متابعته للحوار الكبير بين الشرق والغرب ، الذي شكل حكم الأسرة السورية لروما ذروته ، وذلك بين أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي . وقد كان لمدينة حمص بالذات أن تلعب الدور الأهم في ذلك المخاض الديني الكبير إبان القرن الثالث الميلادي ، والذي انتهى باعتناق الامبراطور «قسطنطين» الديانة المسيحية واعلانها ديانة رسمية للامبراطورية .

لايقدم هذا الكتاب عرضاً تاريخياً لفترة حكم الأسرة السورية ، وإنما عرضاً للحياة الفكرية والروحية لعالم زاخر بالتناقضات والصراعات قيض له أن يتوحد أخيراً تحت لواء ديانة ساهمت عبقرية الغرب والشرق معاً في اغنائها . إنه مرآة بانورامية تنعكس عليها أخصب فترات تاريخ المشرق العربي قبل احتضاره ، ممهداً الطريق أمام الحضارة العربية الفتية .

12

دار المنارة